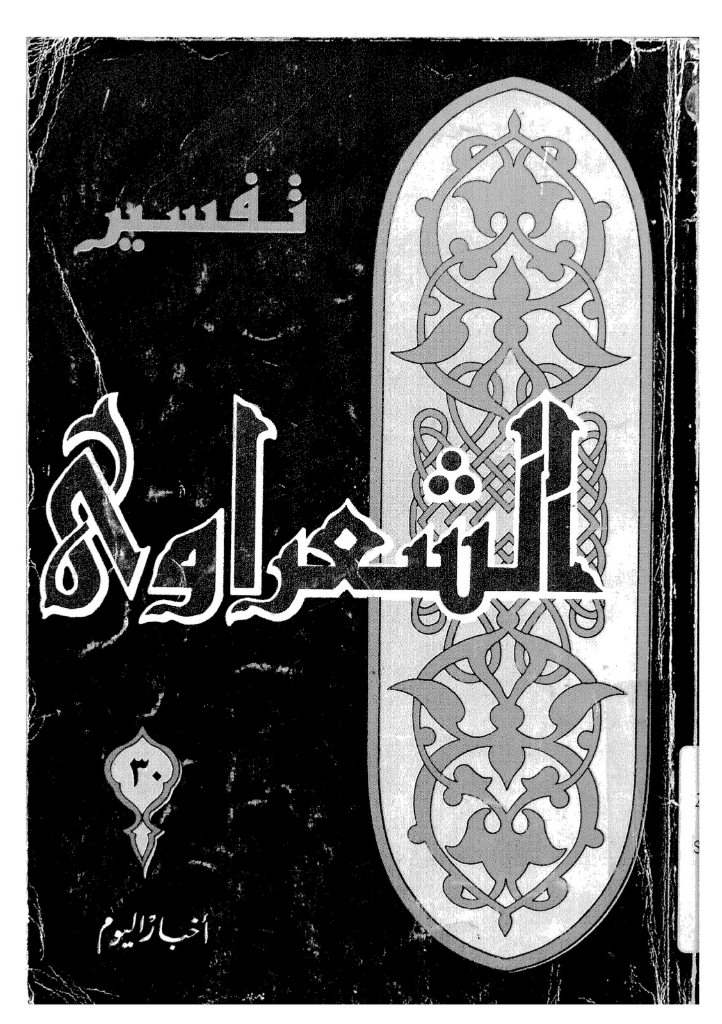

تفسير
الشعراوي
٣٠
أخبار اليوم

إذن فبؤرة الشعور هى التى فيها ما أنت الآن بصدده فلا يمكن أن تتداخل الأفكار فى البؤرة الشعورية ، ولذلك عندما تريد أن تستدعى حاجة فى بؤرة الشعور . فالمعانى تتداعى كى تأتى بما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور . وساعة يأتى ما تريده فى بؤرة الشعور يذهب الخاطر الأول .

إياك أن تظن أن العقل البشرى يستطيع أن يواجه فى بؤرة الشعور كل المعلومات ، لا . فمن رحمة الله أنه وضع لشعورك نظاما تخزن فيه معلوماتك ، ولذلك فأنت قد تتذكر حاجة من عشر سنوات ، فإذا كانت قد ذهبت من فكرك فكيف تذكرتها ؟ . إذن فهى موجودة لكنها موجودة فى الحواشى البعيدة للشعور . . وعندما تداعت المعانى خرجت الخاطرة أو الحادثة إلى بؤرة الشعور ؛ ثم تؤدى مهمتها وتذهب ؛ وتأتى أخرى فى بؤرة الشعور .

إن هذا الذهن البشرى فيه قوة وطاقة يختزن فيها الأحداث ، وعلى الرغم من ذلك تختلف قدرات الناس ، فهناك من يحفظ قصيدة من عشر مرات ، وهناك ذهن يحفظ من مرتين ، وهناك من يحفظ من ثلاث مرات . إن الذهن كآلة التصوير « الفوتوجرافى » يلتقط من مرة واحدة ، والمهم فقط أن تكون بؤرة شعورك خالية ساعة الالتقاط . فإن كانت بؤرة شعورك خالية من غيرها تلتقطها .

أنت تكرر القصيدة أو الآية أو الكلمة كى تحفظها ؛ لأنك لو قدرت أن تجعل بؤرة شعورك مع النص لحفظت النص مباشرة ، لكنك لا تحفظ النص ؛ لأن هناك خواطر تأتيك فتخطف التركيز ، وتكون بؤرة الشعور مشغولة بسواها فلا تستطيع أن تحفظ المعلومة الجديدة ، فتكرر الحفظ إلى أن تصادف كل جزئية من جزئيات الشعر أو القصيدة أو الآية خلو بؤرة الشعور ؛ لذلك يقولون: هناك طالب يحفظ ببطء ، وآخر يحفظ بسرعة ، إن الذى يقدر أن يركز ذاكرته لما هو بصدده ، فذهنه يلتقط ما يقرأ من مرة واحدة أما الذى لا يركز فإن حفظه يكون بطيئا .

وأضرب هذا المثل ، وقد يكون أغلبنا مرّ به ، وخصوصاً من تعرض للعلم وللامتحانات : هب أنك طالب فى امتحان ، وبعد ذلك دق الجرس لتدخل مكان

الامتحان ، ثم جاء زميل لك وقال لك : القطعة الفلانية سيأتى منها سؤال ، وأنت لم تكن قد ذاكرتها ، هنا تخطف أى كتاب وتقرؤها بإمعان ، فهل وأنت فى هذه الحالة تفكر فى ماذا ستأكل على الغداء ؟ أو تفكر فى من كان معك بالأمس ؟ لا ؛ لأن الوقت ضيق ولن يتركز فكرك إلا فى هذه القطعة التى تقرؤها ثم تدخل الامتحان فتجد سؤالاً فى القطعة التى ذاكرتها من دقائق ولمدة قصيرة فتضع الإجابة الصحيحة ، وقد لا يعرفها مَن ذاكرها لمدة شهر ؛ لأنه ذاكرها وباله مشغول ، أما أنت فتضع إجابة السؤال كما يجب لأنك ذاكرتها وليس فى ذهنك غيرها ؛ لأن الوقت ضيق وكانت بؤرة شعورك محصورة فيها ..

ومثال آخر : نجد تلميذاً من التلاميذ يشكو من عدم فهمه من أستاذه لكن هناك تلميذ آخر يفهم ، والتلميذ الذى لا يفهم هو من انصرف ذهنه عنه فى أثناء الشرح فى مسألة بعيدة عن العلم الذى يدرسه ، وعندما يجىء درس جديد ، فهو يفاجأ بمعلومات لا بد أن تستقر وتبنى على معلومات سابقة كان ذهنه مشغولاً عنها ، فلما شرح المدرس الدرس الجديد ، قال التلميذ الذى لا يفهم : ماذا يقول هذا المدرس ؟. لكن التلميذ المنتبه له والذى يربط المعلومات بعضها ببعض ؛ يفهم ما يقوله المدرس ، ولذلك فالأستاذ الجيد لا بد أن يثيرالانتباهات دائماً لطلابه ، بمعنى أن يفاجئهم ، يقول مثلاً كم جملة ثم يقول للتلميذ : قم ، ماذا قلت الآن ؟. فيجلس كل تلميذ وهو عُرضة أن يُسأل ، فيخاف أن يُحرجه الأستاذ ، فينتبه للدرس ويجعل بؤرة شعوره مع المدرس دائماً .

فالحق سبحانه وتعالى بعدما تكلم عن النار وعن الجنة وجعل هذا الأمر مستقراً فى بؤرة شعورهم ينزل الأحكام بعد ذلك ، ولذلك تجد دائماً بعد أن يذكر سبحانه الجنة والنار يأتى بعدها بأمهات الأحكام التى إذا نفذوها نالوا الجنة وابتعدوا عن النار . فبعدما شحنت بؤرة الشعور بالجنة والنار بالغاية المنفرة والغاية المرغبة ، هنا يأتى الحكم ، فيقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

وقوله سبحانه : « أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، أوجز الله فيها كل تكاليف السماء لأهل الأرض ، لأن الأمانات هى : الأمانة العليا وهى الإيمان بالله ، والأمانة التى تتعلق ببنى الجنس ، والأمانة التى على النفس لكل الأجناس .

ومعنى الأمانة هو : ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمين عليها ، إن شئت فعلتها ، وإن شئت لم تفعلها ، أنت تقول : أنا أودعت عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ؛ لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة . فالأمانة : أن تودع عنده شيئاً ، وضميره هو الحكم ، إن شاء أقر بما عنده لك حين تطلبه ، وإن شاء لم يقر به ، قال الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فما هى الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبت أن تحملها ثم حملها الإنسان ، وعلة تحمله لها أنه كان ظلوماً جهولاً ؟ إن الكون كما نعلم فيه أجناس ، أدناها الجماد ، وأوسطها النبات ، وأعلى من الأوسط الحيوان ثم الإنسان ، والإنسان هو سيد هذه الأجناس ؛ لأنها تخدمه جميعها ، لكن الجماد والنبات والحيوان لا اختيار لأى منها فى أن يفعل أو لا يفعل ، وإنما كل جنس منها قد خلق لشىء ليؤديه ، ولا اختيار له فى أن يمتنع عن الأداء .

الأرض والسماوات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة أو أن تحمل أمانة وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل . وأشفقت الأرض والسماوات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء

الأمانة . فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمل الأمانة أن يؤديها ، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه ، فربما خانته نفسه وجعلته لا يقر بها . لقد احتاطت السماوات والأرض والجبال وقالوا : لا نريد هذه الأمانة ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك ، نطيع أو نعصى ، وإنما يارب نريد أن نكون مسخرين لما تحب دون اختيار لنا . فسلمت الأرض والسماوات والجبال ، لكن الإنسان بما فيه من فكر يرجح الاختيار بين البديلات قال : أنا أقبلها وإن فكرى سيخطط لأدائها . ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمله الأمانة إلى حالة أدائه لها .

ومثال ذلك : من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغاً من المال كأمانة عندك ، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك ، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك ، فقد تمر بك ظروف فتصرف شيئاً من المال ، أو أن تكون ـ والعياذ بالله ـ قد خربت ذمتك .

إذن فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء وإن ملك نفسه وقت الأخذ ، فالذين يحتاطون يقولون : أبعد عنا تحمل الأمانة ، فلا نريد أن نحمل لك شيئا ولكن الإنسان قبل تحمل الأمانة ؛ لأنه « كان ظلوما جهولا » ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء ، إذن فالأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هى أمانة الاختيار التي يترتب عليها التكليف من الله .

إن التكليف محصور فى « افعل » و« لا تفعل » ، فإن شئت فعلت فى « افعل » ، وإن شئت لم تفعل فى « لا تفعل » . وإن شئت العكس ، ومعنى ذلك أن الأمانة فى هذا المعنى مقصورة على ما طلبه الله من الإنسان وقت العرض . لكنها لم تتعرض للأمانات التى توجد بيننا ، والأمانة كذلك هى ما يتعلق بذمتك بحق غيرك ؛ لذلك فحين يعطى إنسيان إنساناً شيئاً يصير الآخذ مؤتمناً فإن شاء أدى وإن شاء لم يؤد .

لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان ، وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذى أعطاه الله للناس أمانة . فهل الذى علمك علماً وأعطاه لك وبعد ذلك قال لك : أدّه لى ، كمثل من يكون مأموناً على مال ؟

تقول للعالم : العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك وبعد ذلك يرده لك ولكن الله يجازيك عليه ثواباً وكذلك فى الحلم والشجاعة ، ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا فى المال ، لكن فى بقية الأشياء ؛ نقول لك : أنت أمين عليها أمام خالقك ، وقد أمنك ربنا على هذه الأشياء كى تؤديها إلى من لا يعلم ، فأمنك على قدرةٍ وأمرك : أعطها لمن لا يقدر ، وأمنك على علم وأوضح لك : أعطه لمن لا علم له . .

إذن فمن الذى أعطاك هذه الأمانة ؟ الله . فليس ضرورياً أن تكون الأمانة من صاحبها الذى أعطاها لك لتردها إليه ، فالأمانة : ما تصير مأموناً عليه مِمن خَلَقَ أو من مخلوق ، فأدها ، والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهليتك للتكليف من الله حين كلفك أمانة عندك ، وأهليتك فى المواهب المختلفة أمانة عندك ، فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ولابد أن يؤديها وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة . فربنا أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فكر ، وأعطى ثالثاً قوة حلم ، وأعطى رابعاً علمًا . كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله فى خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين .

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحدًا ، والأمانة فى التكاليف التى كلفك الله بها ؛ لأنها أمانة لغيرك عندك ، وأمانة عندك لغيرك . فحين يكلفك الله بألا تسرق ، يكون قد كلف الناس كلهم ألا يسرقوك .

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك ، فإن أديت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذى يحيط بك الأمانة التى عنده ، وهكذا تكون الأمانة هى : أداء حق فى ذمتك لغيرك .

وقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قيل نزلت فى عثمان ابن طلحة ابن أبى طلحة وكان سادن ـ خادم ـ الكعبة وحين دخل رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علىٌّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسِّدانة فنزلت هذه الآية فأمر أن يرده إلى عثمان - رضى الله عنه - ويعتذر له فقال عثمان لعلى : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، فقال لقد أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان وهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السِّدانة فى أولاد عثمان أبدًا .

وهذا ويقابل الأمانة شىء بعد ذلك اسمه العدل ، فلو أدى كل واحد ما لغيره عنده من حق لما احتجنا إلى عدل ، فالعدل إنما ينشأ من خصومة وتقاضٍ ، والتقاضى معناه : أن واحداً أنكر حق غيره . فلو أدى كل واحد منا ما فى ذمته من حق لغيره لما وجد تقاضٍ ، ولما وجدت خصومة فلا ضرورة إلى العدل حينئذٍ .

ولكن الحق الذى خلق الخلق وعلم الأغيار فيهم قدر أن بعض الناس يغفل عن هذه القضية وينشأ منها أن الإنسان قد لا يعطى الحق الذى فى ذمته لغيره ، فقضى سبحانه بشىء آخر اسمه « العدل » . ولو آن المسألة الاولى انتهت لما احتجنا للعدل .

إذن فالعدل هو علاج للغفلة التى تصيب البشر من الأغيار التى تطرأ على نفوسهم ، فشاء الله أن يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فى الأولى لم يقل : إذا أئتمنتم فأدوا ، لا . بل قال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا » . فإذا حدثت منكم غفلة عن هذه فما الذى يحمى هذه المسألة ؟ هنا يأتى العدل وهو أن تقضى بحق فى ذمة غيرك لغيره ، أى ليس فى ذمتك أنت ؛ لأنك تحكم كى ترجح مسألة وتضع الأمر فى نصابه .

وبذلك نعرف أن مطلوبات أداء الأمانة تكون فى شىء عندك تؤديه لغيرك ، لكن مطلوبات العدل : تكون فى أشياء فى ذمة غيرك لغيرك . ولذلك قال الحق : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وكما أن آية أداء الأمانة عامة ، كان لابد أن تكون آية العدل عامة أيضاً .

إن قوله تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إنّ كل إنسان مطالب بالعدل ، فلو كنت مُحَكَّمًا من طرف قوم ورضوا بك أن تحكم فاحكم بالعدل حتى ولو كان الحكم فى الأمور التى يتعلق بها التكريم والشرف والموْهبة ؛ فليس ضرورياً أن يكون الحكم بالعدل فى أمر له قيمة مادية ، مثلاً : سيدنا الإمام على - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ؛ ليحكم بينهما أى الخطين أجمل من الآخر ، وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة لكنها مادامت شغلت الطفلين وأراد كل واحد منهما أن يكون خطه أجمل ، فلابد أن يكون الحكم بالعدل . فقال الإمام على لابنه الحسن : يا بنى انظر كيف تقضى ، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

إن هذا يعطينا صورة فى دقة العدل حتى ولو كان الأمر صغيراً . وفى مباريات كرة القدم تجد الحكم الذى يقول هذه اللعبة تحتسب هدفاً أو لا تحتسب ، هذا الحكم يحتاج إلى مهارة لأنه سيترتب عليها فوز فريق أو هزيمته ، بدليل أنك حتى وأنت تراقب الكرة ثم وجدت الحكم لم يحتسب خطأ تثور عليه .

وهنا أتساءل : لماذا طبقتم قانون الجد فى اللعب ، ثم تركتم الجد بدون قانون ؟ وهذا ما يحدث . نحن ننقل قوانين الجد إلى اللعب ، ونترك الجد فى بعض الأحيان بدون قانون ، ولو اعتنينا بهذه كما أعتنينا بتلك . لتساوت الأمور ، فالعدل إذن هو حق فى ذمة غير لغير حتى ولو كانت مباراة فى اللعب ، ومادام الأمر قد شغل طرفين ، وجعل بينهما نزاعا وخلافا وتسابقًا فعليك أن تنهى هذا الخلاف بالعدل .

ويتابع الحق : ﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ و﴿ نعما ﴾ يعنى نعم ما يعظكم به الله ، أى لا يوجد أفضل من هذه العظة التى هى : أداء الأمانة والحكم بالعدل ، فبهذا تستقيم حركة الحياة . فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف ، وإذا أدوا عدالة الحكم فإن كان هناك خلاف ينتهى . وقال العلماء : إذا علم المجتمع أن عدلا يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرّىء ذلك ظالماً على أن يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم : فلان ظلم ولم يحاكم ، فيغرى ذلك الظالم أن يزيد فى ظلمه ، لكن ساعة

يرى الناس أحداً يأخذ حق غيره ثم جاء الحاكم فردعه ، ورد الحق لصاحبه فلن يظلم أحد أحداً .

وسبحانه فى أمره هذا لا حاجة له فى أن تفعلوا أو لا تفعلوا ، فهى أشياء لا تؤثر عنده فى شىء ، إنما هى فى مصالحكم أنتم بعضكم مع بعض ، وأحسن ألوان الأمر هو ما لا يعود على الآمر بفائدة ، لأن الأمر إذا ما كان فيه عود بالفائدة على الآمر قد يشكك فى الأمر . لكن أن تأمر بأمر ليس لك فيه فائدة فهذا قمة العدل . وقد يوجد إنسان يأمر بما لا فائدة له فيه ، لكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة ، والأمر هنا يختلف لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مصلحة فى الأمر ، هذه واحدة ، وأيضاً فهو ـ سبحانه ـ واسع العلم والحكمة ؛ لذلك كانت هذه العظة مقبولة جداً ، وهى نعمة من الله وأما ما عداها فبئست العظة ؛ لأن الله لا ينتفع بأمره هذا وهو مأمون على العباد جميعاً ، والثانية : أنه قد يوجد غير لا ينتفع بالأمر ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة فلا نعمت العظة منه ، فقوله : « إن الله نعما » يعنى : نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن تحكموا بالعدل .

ونلحظ الأداء البيانى فى القرآن فى قوله : « تؤدوا » هذه للجماعة ، وهذا يعنى أن كل واحد مطالب بهذا الحكم أولاً ، « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فيكون كل واحد مطالبًا بالحكم أيضاً ، كأن مهمتكم الأمانية ليست مقصورة على أن تصونوا حقوقكم بينكم وبين أنفسكم ، لا ، فأنتم مكلفون بأن تصونوا الحقوق بين الناس والناس ولو لم يكونوا مؤمنين .

إن قوله : « وإذا حكمتم بين الناس » . يُفهم منها أيضاً حماية حقوق من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن بدين الإسلام ؛ لأن الحق جل وعلا يريد منا أن نؤدى الأمانة إلى « أهلها » ، ولم يقل « أهلها » المؤمنين أو الكافرين .

إن كلمة « الناس » هذه تدل على عدالة الأمر من إله هو رب للجميع ، فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان للدنيا ، والإنسان منه مؤمن ومنه كافر . لكن أحداً لا يخرج عن نطاق الربوبية لله ، فربنا يرُبُّ ويرعى كل إنسان ـ مؤمناً كان أو كافراً ـ هو يرزق الجميع ولذلك أمر الكون : يا كون أعط من فَعَلَ الأسبابَ الغاية من

المسببات إن كان مؤمناً أو كافراً . وهذا هو عطاء الربوبية ، إنه ـ سبحانه ـ رزق الإنسان وسخّر الأشياء له ، فهو لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن وللكافر ، فكذلك طلب منا أن نؤدى الأمانة للمؤمن والكافر ، وطلب منا أن نعدل بين المؤمن والكافر .

ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فقد حدث أن « طعمة ابن أبيرق » أحد بنى ظَفر سرق درعاً[1] من جارٍ له اسمه « قتادة بن النعمان » ، فى جراب دقيق والاثنان مسلمان ، إلا أن منافذ الحق لمرتكب الجريمة ضيقة مهما ظن اتساعها ، مثلما نقول : « الجريمة لا تفيد » ، فوضع الدرع المسروقة فى جراب كان فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وهو يسير من بيت قتادة بن النعمان وخبأ الدرع عند يهودى اسمه « زيد بن السمين » ، فلما فطن قتادة بن النعمان لضياع الدرع قال : سرق الدرع . سرق الدرع . فتتبعوا الأثر فوجدوه إلى بيت طعمة ابن أبيرق ، فحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه . فتتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند اليهودى « زيد بن السمين » فقال اليهودى دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود ، ورفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بنو ظفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فأنزل الله عليه حكمه الفصل :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين واستغفر الله إن كان هذا الخاطر قد جال برأسك بأن ترفع رأس مسلم على يهودى ؛ لأن الحق أولى من المسلم ؛ فمادام هو قبل

[1] الدرع : هو القميص من حلقات من الحديد متشابكة تلبس وقاية من الطعن بالسلاح .

أن يخون فلا تجادل عنه ، ولماذا طلب بنو ظفر التغاضى عن جريمة مسلم وإلصاقها بيهودى ؟ أيستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ؟ وافرض أن هذه برأتهم عند الناس . أتبرئهم عند الله ؟ ويقول فى آية أخرى :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة النساء)

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » لابد أن نأخذه على أنه مطلب تكليفى من الله للمسلمين حتى يشيع فى كل الناس ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم ، وإنما يشمل أيضا ما بين المؤمنين والكافرين ، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله .

« إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » وحين ترون تذييل آية بصفتين من صفات الحق أو باسمين من أسماء الحق ، فلا بد أن تعلموا أن بين الصفتين أو بين الاسمين وبين متعلق الآية علاقة ، وهنا يعلمنا الحق أنه سميع وبصير . بعد أداء الأمانة ، والحكم بالعدل بين الناس ، لأن الرسول شرح ذلك حين أمر من يقضى بين الناس أن يسوى بين الخصمين فى لحظه ولفظه أى لا ينظر لواحد دون الثانى ، ولا يكرم واحداً دون الآخر ، فيسوى بين الاثنين ومادام سيسوى بين الاثنين ، فلا بدَّ أن تكون النظرة واحدة ، والألفاظ واحدة .

روى أن يهوديا خاصم سيدنا عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنادى أمير المؤمنين عليا فقال : « قف يا أبا الحسن » فبدا الغضب على علىّ رضى الله عنه ، فقال له عمر : « أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء ؟ فقال على رضى الله عنه : « لا . ولكنى كرهتُ منك أن عظمتنى فى الخطاب فناديتنى بكنيتى ولم تصنع مع خصمى اليهودى ما صنعت معى »

إذن فحين يقول عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى : « آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك »[1] .

(١) من كتاب سيدنا عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى بعد تكليفه بالقضاء .

فلا بد أن يقوم بتلك التسوية كل حاكم أو محكم بين خصمين فلا يميز ولا يرفع خصما على خصمه .

و« اللحظ » عمل العين . وهذا يحتاج إلى بصير ، واللفظ يحتاج إلى أذن تسمع ، أى إلى سميع ، فقال : « إن الله كان سميعاً بصيراً » . لماذا قدم سبحانه هنا سميعاً على بصير ؟ لأن ما يُسمع فيه تعبير واضح . أما النظرة فلا يعرفها إلا من يلاحظ أنه ينظر بحنان وإكبار ، وهل وجدت له سبحانه صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه ، وهل وجدت له صفة البصر بعد أن وجد ما يبصره ؟ أو أن صفة السمع أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً يسمع منه ، وأن صفة البصر أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً ليبصر أفعالهم ؟ إنه سبحانه قديم أزلاً ، موجود قبل كل موجود . وصفاته قديمة بقدمه .

إذن ففيه فرق بين أن تقول : سميع وبصير ، وسامع ومبصر ، فأنت تكون سامعاً إذا وجد بالفعل من يُسْمع ، إذن فما معنى كلمة « سميع » ؟ أن يكون المدرك على صفة يجب أن تدرك المسموع إن وجد المسموع وإن لم يوجد المسموع فهو ليس سامعًا فقط ، إنما هو سميع ، وكذلك بصير .

وأضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ، وهو منزه عن كل تشبيه ـ الشاعر الذى يقول القصيدة ، إنه قبلما يقول القصيدة كان شاعراً فى ذاته وقال القصيدة بوجود ملكة الشعر فى ذاته . والحق سبحانه وتعالى « غفّار » قبل أن يخلق الخلق ، أى أنه على صفة تدرك الأمر إن وجد . . وهو غفار قبل أن يوجد الخلق ويرتكبوا ما يغفره ، وهو « سميع بصير » أزلاً . أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبْصر وينشأ منهم ما يُسْمع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

هذه الآية كثر كلامنا فيها ، وفى كل مناسبة من المناسبات جاء الكلام عنها ، ولكن علينا أيضاً أن نعيد بشيء من الإيجاز ما سبق أن قلناه فيها ، الله سبحانه وتعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ولماذا أطيع الله وأطيع الرسول ؟ لأن فيه الحيثيات المقدمة ، فأنت عندما ترى حكما من القاضى تجد أن هناك حيثيات الحكم أى التبرير القانونى للعقوبة أو للبراءة ؛ فيقول القاضى : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا . هذه هى الحيثيات . و« الحيثيات » مأخوذة من : حيث إنه حدث كذا فحكمنا بكذا . أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا ، إذن فحيثيات الحكم معناها : التبريرات التى تدل على سند الحكم لمن حكم .

هنا يقول سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . وهل الحق سبحانه وتعالى قال : يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ؟ لا . لم يقل ذلك ، لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » . إذن فما دمت قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مكلِّفاً فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلق أناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به . ومن يؤمن يقول له : أطعنى مادمت قد آمنت بى .

إذن فحيثية الطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم نشأت من الإيمان بالله وبالرسول . وهذه عدالة كاملة ؛ لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به ـ سبحانه ـ مكلِّفاً ، آمن به آمراً ، أما الذى لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلى ، ولذلك تجد كل تكليف يصدر بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن حيثية إطاعة الله وإطاعة الرسول هى : الإيمان به ، هذه هى الحيثية الإيمانية الأولى ، أما إن جال ذهنك لتدرك سر الطاعة ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : إياكم أن تقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولا فإن اقتنعتم بها أخذتموها

وإن لم تقتنعوا بها تركتموها ، لا . إن مثل هذا التصرف معناه أنك شككت فى الحكم. بل عليك أن تقبل على تنفيذ أحكامه ؛ لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم . لكن هل ذلك يمنع عقلك من أن يجول ليفهم الحكمة ؟

نقول لك : أنت قد تفهم بعض الحكمة ، ولكن ليست كل الحكمة ؛ لأن كمالات حكمة الله لا تتناهى ، فقد تعرف جزءًا منَ الحكمة وغيرك يعرف جزءًا آخر ، ولذلك قالوا : إن الفرق بين أمر البشر للبشر ، وأمر الله للمؤمنين به شىء يسير جداً هو : أمر الله للبشر تسبقه العلة وهى أنك آمنت به ، أما أمر البشر للبشر فأنت تقول لمن يأمرك : أقنعنى لماذا أفعل هذه ؟ ؛ لأن عقلك ليس أرقى من عقلى . فأنت لا تصنع شيئا إلا إذا اقتنعت به . وتكون التجارب قد أثبتت لك أصالة رأى من تستمع له وأنه لن يغشك .

وهكذا نرى أن طاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ؛ فنحن نطيع الله لأننا آمنا به وحينما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، ننظر هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصالحه ؟ فإذا وثقنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا ؛ إذن فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ؛ لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه ، وسبحانه قد خلقك دون أن يكون لك حق الخلق عنده ، خلقك بقدرته ، وأمدك لاستبقاء حياتك بقيوميته ، فحين يطلب منك الإله الذى يتصف بتلك الكمالات شيئا فهو يطلبه لصالحك ، كما ترى أى إنسان من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يُعنى بصنعته ويحب أن تكون صنعته متميزة ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى يريد أن يباهى بهذا الخلق . ويباهى بهذا الخلق ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير لا . بل بالمحبوبية لأمر الله وأن نعلن بسلوكنا : نحن نحبك يا ربنا . وإلا فأنت ـ أيها الإنسان ـ قد تختار أن تكون عاصيا . وما دمت مخيرا أن تكون عاصياً ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبوبية لأنه ؛ ـ كما نعرف ـ هناك فرق بين من يقهر بقدرته ومن يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت محب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك .

فساعة قال الحق : « أطيعوا الله » معناها : أنه لم يطلب منا شططاً ، وكيف نطيع الله ؟ . أن نطيعه فى كل أمر ، وهل أَمَرَ اللَّهُ خَلْقَه منفردين ؟ . لا ، بل أمرهم كأفراد

وكجماعة ، وأعطاهم الإيمان الفطرى الذى يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقته . وهذه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعطى لمن يطيعها ؛ إذن فلا بد أن يوجد مُبلِّغ . ولذلك فأنا أرى أن بعض الفلاسفة قد جانبوا الصواب عندما قالوا : إن العقل كاف فى إدراك الدين ، وأقول لهم : لا . العقل كاف فى إدراك من ندين له ، ولكن العقل لا يأتى لنا بكيفية الدين ومنهجه .

لذلك لا بد من بلاغ عنه يقول : افعلوا كذا وكذا وكذا ، نقول لهؤلاء الفلاسفة : إن العقل كافٍ فى استنباط وجود قوة وراء هذا الكون ، أما شكل هذه القوة ، واسمها وماذا تريد ؛ فلا أحد يعرف ذلك إلا أن يوجد مبلِّغ عن هذه القوة ، ولا بد أن تكون القوة التى آمنت بها بفطرتك قد أرسلت من يقول : اسمه كذا ، ومطلوبه كذا ، إذنِ فقوله : « أطيعوا الله » يلزم منها إطاعة الرسول .

وبعد ذلك قال : « وأولى الأمر » ، و«وأولى الأمر» هنا لم يتكرر لهم الفعل ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر لنفهم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن الطاعتين : طاعة الله وطاعة الرسول ، ونعلم أن الطاعة تأتى فى أساليب القرآن بثلاثة أساليب : « أطيعوا الله والرسول » و« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، وأطيعوا الرسول فقط . إذن فثلاثة أساليب فى الطاعة :

الأسلوب الأول : أطيعوا الله والرسول ؛ فأمر الطاعة واحد والمطاع هو الله والرسول .

والأسلوب الثانى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .

والأسلوب الثالث : أطيعوا الرسول ، نعم . فالتكليفات يأمر بها الحق سبحانه وتتأكد بحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فعله أو تقريره ، وهنا تكون الطاعة فى الأمر لله وللرسول ، أو أن الحق قد أمر إجمالاً والرسول عين تفصيلاً ؛ فقد أطعنا الله فى الإجمال وأطعنا الرسول فى التفصيل فتكون الطاعة لله ، وتكون الطاعة للرسول ، أو إن كان هناك أمر لم يتكلم فيه الله وتكلم الرسول فقط . ويثبت ذلك بقول الحق :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

وقوله تعالى :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فهذه تثبت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ملاحظ فى التشريع : ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له أو أن الله قد شرع إجمالا ، والرسول عيّن تفصيلا . والأمثلة على ذلك : أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الزكاة ، وهذه تكليفات قالها ربنا ؛ والرسول يوضحها : النصاب كذا ، والسهم كذا ، إذن فنحن نطيع ربنا فى الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى ، أو أنّ الأمر لم يتكلم فيه الله حكماً ، وإنما جاء من الرسول بتفويض من الله ، ولذلك فإن قال لك أى إنسان عن أى حكم من الأحكام : هات دليله من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقل له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

هذا دليل كل أمر تكليفى صدر عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يقول قائل : هناك فارق بين الأمر الثابت بالسنة والفرض . نقول : لا تخلط بين السنة وهى الأمر الذى إن فعلته تثاب وإن لم تفعله لا تعاقب ، والفرض الذى يجب على المكلفّ أن يفعله ، فإن تركه أثم وعوقب على الترك ، وهذا الفرض جاء به الحق وأثبته بالدليل كالصلوات الخمس وعدد الركعات فى كل صلاة ، فالدليل فى الفرض هنا ثَبت بالسنة وهذا ما يسمى سنية الدليل ؛ وهناك فرق بين سنية الحكم كأن يصلى المسلم قبل الظهر ركعتين وقبل الصبح ركعتين وفرضية الحكم كصلاة الصبح والظهر . . إذن ففيه فرق بين الشيء الذى إن فعلته تثاب عليه وإن لم تفعله لا تعاقب عليه والشيء الذى يفرض عليك أداؤه ، فإن تركته أثمت وعوقبت ، وأما سنية الدليل فهى شرح ما جاءت به الفروض شرحاً تطبيقياً ليتبعه المسلمون .

أما الأمر بطاعة أولى الأمر فقد جاءت بالعطف على المطاع دون أمر بالطاعة ، مما يدل على أن طاعة ولىّ الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفى ذلك عصمة للمجتمع الإيمانى من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقول الله : « وأولى الأمر » ويدعون أن طاعتهم واجبة ، يقول الواحد منهم : ألستُ ولى أمر ؟. فيرد العلماء : نعم أنت ولى أمر ولكنك معطوف على المطاع ولم يتكرر لك أمر الطاعة ، فدلّ ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين . فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هى « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبدالملك حينما قال له : ألسنا ولاة الأمر وقد قال الله : « وأولى الأمر » . قال : ويجب أن نفطن أيضاً إلى أنها نزعت فى قوله سبحانه : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » . إذن فالحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومطالب بالعدل ، ومطالب أيضاً أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله . فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط .

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » إذن فالتنازع لابد من أن يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون لها مردّ ينهى هذا التنازع « فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء ، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم نذهب إلى العلماء ليبينوا لنا حكم الله فى هذه المسألة ، إذن فإن أريد بـ « أولى الأمر » الحاكم ، نقول له : « فردوه إلى الله والرسول » أى على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول ، والحجة فى ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الدين . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك ، يريد أن ينهى مسألة التنازع ، لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربة ، هذا يقول بكذا وذلك يقول بكذا ، فلا بد أن نرده إلى مردّ أعلى ، والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

إذن فقد يكون المراد بأولى الأمر « العلماء » .

نقول : إن الآية الأولى عامة وهى التى جاءت بها طاعة ولى الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التى تخص الاستنباط يكون المقصود بأولى الأمر هم العلماء .

و أولوا الأمر في القضية الأولى التى عندما نتنازع معهم فى أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفيذية ، أما سلطة العلماء فهى تشريعية إيمانية .

« فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » إذن فالذى لا يفعل ذلك يجازف بأن يدخل فى دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر - ابتداءً فى تلقى الحكم ، وإيمانا باليوم الآخر - لتلقى الجزاء على مخالفة الحكم ، فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء .

وينبهنا الحق فى ختام الآية : « ذلك خير وأحسن تأويلاً » أى فى ذلك خير للحكام وللمحكومين معاً ؛ لأن الخير هو أن يقدر الإنسان ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، وكل شهوة من الشهوات إن قدَّرت نفعها فلن تنفعك سوى لحظة ثم يأتى منها الشر .

والتأويل هو : أن تُرْجع الأمر إلى حكمه الحقيقى ، من « آل » يئول إذا رجع . «وأحسن تأويلا» تعنى أحسن مَرْجعاً وأحمد مغبة وأجمل عاقبة ؛ لأنك إن حرصت بما تريد على مصالح دنياك ، فما ترجع إليه سيكون فيه شر لك . إذن فالأحسن لك أن تفعل ما يجعلك من أهل الجنة ، أو «وأحسن تأويلا» فى الاستنباط ، لأن العلماء سيأخذونه من منطلق مفهوم قول الله وقول الرسول ، وأنت ستأخذها بهواك ، وفهمك عن الله يمنعك من الشطط ومن الخطأ .

فإن كنتم تريدون الخير فلاحظوا الخير فى كل أحيانه وأوقاته ، ولا ينظر الإنسان إلى الخير ساعة يؤدى له ما فى هواه ، ولكن لينظر إلى الخير الذى لا يأتى بعده شر . وإذا ما نظرنا تاريخ الكثير من الحكام ووجدناهم قد أمنوا على انتقادهم فى حياتهم بما فرضوه من القهر والبطش ، فلما ماتوا ظهرت العيوب ، وظهرت الحملات ، إن الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمع عمن حكم قبله . فالذى حكم قبله كمم الأفواه وكسر الأقلام ، وبعدما انتهى ، طالت الألسنة وكتبت الأقلام ، فيجب أن

نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائى ، فمن استطاع أن يحمى نفسه فى حياته بسطوته وجبروته لا يستطيع أن يحمى تاريخه وسمعته . إنه بعد أن انتهت السطوة والجبروت قيل فيه ما قيل ، ونحن مازلنا فى الدنيا ولم نذهب إلى الآخرة بعد ؛ فإذا كان هذا هو جزاء الخلق . فما شكل جزاء الحق إذن ؟!

« ذلك خير وأحسن تأويلاً » أى مرجعاً وعاقبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾

نعرف أن « ألم تر » تعنى : ألم تعلم ، إن كان المعلوم قد سبق الحديث عنه ، أو إن كان المعلوم ظاهراً حادثاً بحيث تراه ، ونعرف أن الحق عبّر بـ « ألم تر » فى كثير من القضايا التى لم يدركها المخاطب وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليدلنا على أن ما يقوله الله ـ وإن كان خبراً عما مضى ـ يجب أن تؤمن به إيمانك بالمرئى لك الآن ، لأن الله أوثق فى الصدق من عينك ؛ فعينك قد تخدعك ، لكن حاشا أن يخدعنا الله .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » والمراد هم المنافقون وبعض من أهل الكتاب الذين زعموا الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . و« الزعم » : مطية الكذب ، فهم « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك »

وهو القرآن ؛ « وما أنزل من قبلك » ، وهو التوراة والإنجيل و« يريدون » بعد ادعاء الإيمان ؛ « أن يتحاكموا إلى الطاغوت » ، والتحاكم إلى شيء هو : الاستغاثة أو اللجوء إلى ذلك الشيء لينهي قضية الخلاف . فعندما نقول:« تحاكمنا إلى فلان » ، فمعنى قولنا هذا : أننا سئمنا من آثار الخلاف من شحناء وبغضاء ، ونريد أن نتفق إلى أن نتحاكم ، ولا يتفق الخصمان أن يتحاكما إلى شيء إلا إذا كان الطرفان قد أجهدهما الخصام ، فهما مختلفان على قضية ، وأصاب التعب كُلًّا منهما .

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » . و« الطاغوت » -كما عرفنا- هو الشخص الذى تزيده الطاعة طغياناً ، فهناك طاغٍ أى ظالم ، ولما رأى الناسَ تخافه استمرأ واستساغ الظلم مصداقاً لقول الحق :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الزخرف)

وهذا اسمه « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . والطاغوت يطلق على المعتدى الكثير الطغيان سواء أكان أناساً يُعبدون من دون الله ولهم تشريعات ويأمرون وينهون ، أم كان الشيطان الذى يُغرى الناس ، أم كان حاكماً جبّاراً يخاف الناس شرّه ، وأى مظهر من تلك المظاهر يعتبر طاغوتاً . وقالوا : لفظ الطاغوت يستوى فيه الواحد والمثنى والجمع فنقول : رجل طاغوت، ورجلان طاغوت ، ورجال طاغوت ، يأتى للجمع كقوله الحق :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

ويأتى للمفرد كقوله الحق :

﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النساء)

إذن فمرة يأتى للجمع ومرة يأتى للمفرد ، وفى كل حكم قرآنى قد نجد سبباً

خصوصاً نزل من أجله الحكم ، فلا يصح أن نقول : إن حكماً نزل لقضية معينة ولا يُعدَّى إلى غيرها ، هو يُعدَّى إلى غيرها إذا اشترك معها فى الأسباب والظروف ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

لقد نزلت هذه الآية فى قضية منافق اسمه « بشر » . حدث خلاف بينه وبين يهودى ، وأراد اليهودى أن يتحاكم إلى رسول الله ، وأراد المنافق أن يتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » ، وكان اليهودى واثقاً أن الحق له ولم يطلب التحاكم إلى النبى حباً فيه ، بل حباً فى عدله ، ولذلك آثر مَن يعدل ، فطلب حكم رسول الله ، أما المنافق الذى يعلن إسلامه ويبطن ويخفى كفره فهو الذى قال : نذهب إلى كعب بن الأشرف الطاغوت ، وهذه تعطينا حيثية لصدق رسول الله فى البلاغ عن الله فى قوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكون اليهودى يريد أن يتحاكم إلى رسول الله ، فهذه تدل على ثقته فى أن رسول الله لن يضيع عنده الحق ، ولم يطلب التحاكم إلى كبير من كبراء اليهود مثل « كعب بن الأشرف » لأنه يعرف أنه يرتشى .

ويختم الحق الآية : « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » فهما حين يتحاكمان إلى الطاغوت وهو « كعب بن الأشرف » ؛ وبعد ذلك يقضى لمن ليس له حق ، سيغرى مثل هذا الحكم كل من له رغبة فى الظلم أن يظلم ، ويذهب له ليتحاكم إليه ! فالضلال البعيد جاء هنا لأن الظلم سيتسلسل ، فيكون على القاضى غير العادل وزر كل قضية يُحكم فيها بالباطل ، هذا هو معنى « الضلال البعيد » ، وليت الضلال يقتصر عليهم ، ولكن الضلال سيكون ممتداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى

ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

وعندما نسمع قول الحق : « تعالوا » ، فهذا يعنى نداء بمعنى : اقبلوا ، ولكن كلمة « أقبلوا » تعنى الإقبال على المساوى لك ، أما كلمة « تعالوا » فهى تعنى الإقبال على الأعلى . فكأن لقضايا البشر تشريعاً هابطاً ؛ لأنه من صناعة العقل البشرى ، وصناعة العقل البشرى فى قوانين صيانة المجتمعات ـ على فرض أننا أثبتنا حسن نياتهم وإخلاصهم ـ تكون على قدر مستوياتهم فى الاستنباط واستقراء الأحداث .

لكن التشريع حينما يأتى من الله يكون عالياً ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لا تغيب عنه جزئية مهما صغرت ، لكن التقنين البشرى يوضع لحالة راهنة وتأتى أحداث بعدها تستوجب تعديله ، وتعديل القانون معناه أن الأحداث قد أثبتت قصور القانون وأنه قانون غير مستوعب للجديد ، وهذا ناشىء من أن أحداثاً جدّت لم تكن فى بال من قنّن لصيانة المجتمع ، وكان ذهن مشرع القانون الوضعى قاصراً عنها ، كما أن تعديل أى قانون لا يحدث إلا بعد أن يرى المشرع الآثار الضارة فى المجتمع ، تلك الآثار التى نشأت من قانونه الأول ، وضغطت أحداث الحياة ضغطاً كبيراً ليعدّلوا فى الأحكام والقوانين .

أما تشريع الله فهو يحمى المجتمع من أن تقع هذه الأحداث من البداية ، هذا هو الفارق بين تشريع وضعى بشرى جاء لينقذنا من الأحداث ، وتشريع ربانى إلهى يقينا من تلك الأحداث . فالتشريع البشرى كمثل الطب العلاجى . أما التشريع السماوى فهو كالطب الوقائى ، والوقاية خير من العلاج .

لذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بالتشريعات التى تقينا وتحمينا من شرّ الأحداث ، أى أنه يمنع عن الإنسان الضرر قبل أن يوجد ؛ وبذلك تتحقق رحمته سبحانه لطائفة من البشر عن أن تعضّهم الأحداث ، بينما نجد للقانون الوضعى ضحايا ، فيرق قلب المشرعين بعد رؤية هؤلاء الضحايا ليضعوا التعديل لأحكام وضعوها من قبل ،

ففى القانون الوضعى نجد بشراً يقع عليهم عبء الظلم لأنه قانون لا يستوعب صيانة الإنسان صيانة شاملة ، وبعد حين من الزمن يتدخل المشرعون لتعديل قوانينهم ، وإلى أن يتم التقنين يقع البشر فى دائرة الغبن وعدم الحصول على العدل . أما الخالق سبحانه فقد برأ وخلق صنعته وهو أعلم بها ؛ لذلك لم يغبن أحداً على حساب أحد ؛ فوضع تشريعاته السماوية ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

« شفاء » إذا وجد الداء من غفلة تطرأ علينا ، « ورحمة » وذلك حتى لا يأتى الداء . الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . إنه ـ سبحانه ـ يضع من الأحداث ما يفضحهم فيتصرفون بما يكشف نفاقهم ، وبعد ذلك يخطرهم الرسول ويعرف عنهم المجتمع أنهم منافقون .

وهم « يصدون عنك صدوداً » أى يُعرضون عنك يا رسول الله لأنهم منافقون ، وكل منافق عنده قضيتان : قضية لسانية وقضية قلبية ؛ فهو باللسان يعلن إيمانه بالله وبرسول الله ، وفى القلب تتعارض ملكاته عكس المؤمن أو الكافر ، فالمؤمن ملكاته متساندة ؛ لأن قلبه انعقد على الإيمان ويقود انسجام الملكات إلى الهدى ، والكافر أيضاً ملكاته متساندة ؛ لأنه قال : إنه لم يؤمن ويقوده انسجام ملكاته إلى الضلال ، لكن المنافق يبعثر ملكاته !! ملكة هنا وملكة هناك ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ، الكافر منطقى مع نفسه ، فلم يعلن الإيمان ؛ لأن قلبه لم يقتنع ، وكان من الممكن أن يقول كلمة الإيمان لكن لسانه لا يرضى أن ينطق عكس ما فى القلب ، وعداوته للإسلام واضحة . أما المنافق فيقول : يا لسانى . . أعلن كلمة الإيمان ظاهراً ؛ كى أنفذ من هذا الإعلان إلى أغراضى وأن تطبّق علىّ أحكام الإسلام فأنتفع بأحكام الإسلام ، وأنا من صميم نفسى إن وجدت فرصة ضد الإسلام فسأنتهزها . ولذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

والمنافقون يواجهون تساؤلاً : لماذا ذهبتم للطاغوت ليحكم بينكم وتركتم رسول الله ؟. فقالوا : نحن أردنا إحساناً ، وأن نرفق بك فلا تتعب نفسك بمشكلاتنا ، ونريد أن نوفق توفيقاً بعيداً عنك كيلا تصلك المسائل فتشق عليك ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا على حكمك ؛ وهم يقولون هذا بعد أن انفضحوا أمام الناس .

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة » والمصيبة هى الأمر يطرأ على الإنسان بما يضرّه فى عُرفه ؛ ولأنهم منافقون فهم يريدون أن يكون هذا النفاق مكتوماً ، فإذا جاءت حادثة لتفضحهم صارت مصيبة . على الرغم من أنّ الحادثة فى واقعها ليست مصيبة . فعندما نعرف المنافقين ونظهرهم أمام أنفسهم وأمام الناس فنحن نكفى أنفسنا شرّهم . وهم يريدون بالنفاق أموراً لأنفسهم .

وهكذا يكون الكشف لنفاقهم مصيبة بالنسبة لهم ، هم يرون النفاق نفعاً لهم ؛ فبه يستفيدون من أحكام الإسلام وإجرائها وتطبيقها عليهم ، وعندما ينفضح نفاقهم يشعرون بالمصيبة ، مثلهم كمثل الذى ذهب ليسرق ، ثم فوجىء وهو داخل المكان ليسرق أن الشرطة موجودة لتقبض عليه ، وهذا فى الواقع نعمة لأنها تضرب على أيدى المجرم العابث ، لكنها بالنسبة له مصيبة .

وعندما تحدث لهؤلاء المنافقين مصيبة فهم يحلفون بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم . . ويحاولون أن يعتذروا عما حدث ، يحلفون بالله إنهم بالذهاب إلى الطاغوت وأرادوا الإحسان والتوفيق بينهم وبين خصومهم . لكن الحق يعلم ما يخفون وما يعلنون .

فيقول سبحانه :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

وناهيك بعلم الله ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

يعني : نحن لو شئنا أن نقول لك من هم لقلنا لك ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم ، ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم لعلهم يتوبون ، ولتعرفنهم من فحوى كلامهم وأسلوبهم .

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم » لقد ذهبوا ليتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد ذهبوا إلى هناك لعلمهم أنهم ليسوا على حق ، ولأنهم إن ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيحكم بالحق ، والحق يضارُّهم ويُضايقهم ، فهل كانوا بالفعل يريدون إحساناً وتوفيقاً ، أو كانوا لا يريدون الحق ؟ . لقد أرادوا الحكم المزور .

لذلك يأتى الأمر من الحق لرسوله : « فأعرض عنهم » ؛ لأنك إن عاقبتهم فقد أخذت منهم حقك ، والله يريد أن يبقى حقك ليقتص ـ سبحانه ـ لك منهم ، وأعرض أيضاً عنهم لأننا نريد أن يُظهر منهم فى كل فترة شيئاً لنعلِّم المجتمع الإيمانى اليقظة إلى أن هناك أناساً مدسوسين بينهم ، لذلك لا بد من الحذر والتدبر . كما أنك إذا أعرضت عنهم أسقطتهم من حساب دعوتك .

« وعظهم » أى قل لهم : استحوا من أفعالكم . « وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » أى قل لهم قولاً يبلغ الغاية من النفس البشرية ويبلغ الغاية من الوعظ ، أى

يوعدهم الوعيد الذى يخيفهم كى يبلغ من أنفسهم مبلغاً ، أو « قل لهم فى أنفسهم » أى افضح لهم ما يسترون ؛ كى يعرفوا أن الله مطلعك على ما فى أنفسهم فيستحوا من فعلهم ولا يفعلوه ، قل لهم ذلك بدون أن تفضحهم أمام الناس ؛ لأن عدم فضحهم أمام الناس يجعل فيهم شيئا من الحياء ، وأيضاً لأن العظة تكون ذات أثر طيب إذا كان الواعظ فى خلوة مع الموعوظ فيناجيه ولا يفضحه ، ففضح الموعوظ أمام الناس ربما أثار فيه غريزة العناد ، لكن عندما تعظه فى السرّ يعرف أنك لا تزال به رحيماً ، ولاتزال تعامله بالرفق والحسنى .

« وعظهم وقل لهم فى أنفسهم » وإنك لو فعلت ذلك علناً فستعطى الأسوة لغيرك أن يفعل . والله قد أطلعك على ما فى قلوب هؤلاء من الكفر أما غيرك فلا يطلعه الله على غيب ولو رمى أحدًا بذنب أو كفر فلعله لا يصادف الحق والواقع وتشريعنا يقول لنا :

« ادرأوا الحدود بالشبهات » .

والتطبيق لهذا التشريع نجده عندما يتم القبض على سارق ، لكن هناك شبهة فى الاتهام ، هذه الشبهة يجب أن تفسر فى صالح المتهم ، وندرأ الحد لوجود شبهة ؛ فليس من مصلحة المسلمين أن نقول كل يوم : إننا قطعنا يد سارق أو رجمنا زانية . لكن إذا افتضحت الجرائم وليس فى ارتكابها شبهة والمسألة واضحة فلا بد أن نضرب على أيدى المجرمين . فنحن ندرأ الحد بالشبهة حتى لا نلحق ضرراً أو ننال من برىء ، ونطبق الحد حتى يرتدع كل من تسول له نفسه أمراً محرّما حتى لا يرتكب الأمر المحرّم . وعندما يقام الحدّ فى أى بيئة ، فإنه لا يقام إلا لفترة قليلة وتتراجع بعدها الجرائم ، ولا يرى أحد سارقاً أو زانياً .

إذن فقول الله : « وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » يعنى : قل لهم ما يهددهم تهديداً يصل إلى أعماق نفوسهم ، أو «وقل لهم فى أنفسهم» بأن تكشف مستورات عيوبهم أو قل لهم فى أنفسهم بينك وبينهم ؛ لأن هذا أدعى إلى أن يتقبلوه منك ولا يوغر صدورهم ويثير فيهم غريزة العناد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾

الغرض من إرسال الحق للرسول هو أن يعلم الناس شرع الله المتمثل فى المنهج ، وأن يهديهم إلى دين الحق . والمنهج يحمل قواعد هى : افعل ، ولا تفعل ، وما لا يرد فيه « افعل ولا تفعل » من أمور الحياة فالإنسان حرّ فى اختيار ما يلائمه . وأى رسول لا يأتى بتكليفات من ذاته ، بل إن التكليفات تجىء بإذن الله . وهو لا يطاع إلا بإذن من الله . فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء بطاعة الله إلا أن يفوّض من الله فى أمور أخرى ، وقد فوّض الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالمؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ عليهم طاعة الرسول فى إطار ما فوّضه الله والله أذن له أن يشرع .

ويتابع الحق : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » . وظلم النفس : أن تحقق لها شهوة عاجلة لتورثها شقاء دائماً . وظلم النفس أشقى أنواع الظلم ، فمن المعقول أن يظلم الإنسان غيره ، أما أن يظلم نفسه فليس معقولاً . وأى عاصٍ يترك واجباً تكليفياً ويقبل على أمرٍ منهى عنه ، قد يظن فى ظاهر الأمر أنه يحقق لنفسه متعة ، بينما هو يظلم نفسه ظلماً قاسياً ؛ فالذى يترك الصلاة ويتكاسل أو يشرب الخمر أو يرتكب أى معصية نقول له : أنت ظلمت نفسك ؛ لأنك ظننت أنك تحقق لنفسك متعة بينما أورثتها

شقاءً أعنف وأبقى وأخلد ، ولست أميناً على نفسك .

والنفس - كما نعلم - تطلق على اجتماع الروح بالمادة ، وهذا الاجتماع هو ما يعطى النفس الإنسانية صفة الاطمئنان أو صفة الأمارة بالسوء ، أو صفة النفس اللوامة . وساعة تأتى الروح مع المادة تنشأ النفس البشرية . والروح قبلها تتصل بالمادة هى خيِّرة بطبيعتها ، والمادة قبلها تتصل بالروح خيِّرة بطبيعتها ؛ فالمادة مقهورة لإرادة قاهرها وتفعل كل ما يطلبه منها . فإياك أن تقول : الحياة المادية والحياة الروحية ، وهذه كذا وكذا . لا .

إن المادة على إطلاقها خيِّرة ، طائعة ، مُسَخَّرة ، عابدة ، مُسبِّحة . والروح على إطلاقها كذلك ، فمتى يأتى الفساد ؟ . ساعة تلتقى الروح بالمادة ويوجد هذا التفاعل نقول : أنت يا مكلف ستطمئن إلى حكم الله وتنتهى المسألة أم ستبقى نفسك لوّامة أم ستستمرىء المعصية وتكون نفسك أمارة بالسوء ؟

فمَن يظلم مَن إذن ؟ . إنه هواك فى المخالفة الذى يظلم مجموع النفس من روحها ومادتها ، فأنت فى ظاهر الأمر تحقق شهوة لنفسك بالمخالفة ، لكن فى واقع الأمر أنك تتعب نفسك ، « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » . ولنعلم أن هناك فرقاً بين أن يأتى الفاحشة إنسانٌ ليحقق لنفسه شهوة . وأن يظلم نفسه ، فالحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

إذن فارتكاب الفاحشة شىء وظلم النفس شىء آخر ، « فعل فاحشة » قد متع إنسان نفسَه قليلاً ، لكن من ظلم نفسه لم يفعل ذلك . فهو لم يمتعها ولم يتركها على حالها ، إذن فقد ظلم نفسه ؛ لا أعطاها شهوة فى الدنيا ؛ ولم يرحمها من عذاب الآخرة ، فمثلاً شاهد الزور الذى يشهد ليأخذ واحدٌ حقَّ آخر ، هذا ظلم قاسٍ للنفس ، ولذلك قال الرسول : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح

الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا »[1] .

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله » . وظلم النفس أيضاً بأن يرفع الإنسان أمره إلى الطاغوت مثلاً ، لكن عندما يرفع الإنسان أمره للحاكم ، لا نعرف أيحكم لنا أم لا ؛ وقد يهديه الله ساعة الحكم .

إن قوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالمسألة أنهم امتنعوا من المجىء إليك يا رسول الله ؛ فأول مرتبة أن يرجعوا عما فعلوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ؛ لأن الذنب بالنسبة لعدم مجيئهم للرسول قبل أن يتعلق بالرسول تعلق بمن بعث الرسول ، ولذلك يقولون : إهانة الرسول تكون إهانة للمرسِل ؛ فصحيح أن عدم ذهابهم للرسول هو أمر متعلق بالرسول ولكن إذا صعدته تجده متعلقاً بمن بعث الرسول وهو الله ، لأن الرسول لم يأت بشىء من عنده ، وبعد أن تطيب نفس الرسول فيستغفر الله لهم ، إذن فأولاً : يجيئون ، وثانياً : يستغفرون الله وثالثاً : يستغفر لهم الرسول .

وبعد ذلك يقول سبحانه : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » إذن فوجدان الله تواباً رحيماً مشروط بعودتهم للرسول بدلاً من الإعراض عنه ثم أن يَستغفروا الله ؛ لأن الله ما أرسل من رسول إلا ليطاع بإذنه ، فعندما تختلف معه لا تقل : إننى اختلفت مع الرسول ؛ لا . إنّك إن اختلفت معه تكون قد اختلفت مع من أرسله وعليك أن تستغفر الله .

ولو أنك استغفرت الله دون ترضية الرسول فلن يقبل الله ذلك منك . فلا يقدر أحد أبداً أن يصلح ما بينه وبين الله من وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

وحين يفعلون ذلك من المجىء إلى الرسول واستغفارهم الله واستغفار الرسول لهم سيجدون الله تواباً رحيماً ، وكلمة « توّاب » مبالغة فى التوبة فتشير إلى أن ذنبهم كبير .

---

(١) رواه مسلم .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ويعلم أن الأغيار تأتى فى خواطرهم وفى نفوسهم وأن شهواتهم قد تستيقظ فى بعض الأوقات فتنفلت إلى بعض الذنوب ، ولأنه رب رحيم بين لنا ما يمحص كل هذه الغفلة ، فإذا أذنب العبد ذنباً أربُّهُ الرحيم يتركه هكذا للذنب ؟ لا . إنه سبحانه شرع له العودة إليه ؛ لأن الله يحب أن يئوب عبده ويرجع إليه وإن غفل بمعصيته .

إن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نزيل عنا آثار المعاصى ، فقال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالعلاج من هذه أن يجيئوك لأنهم غفلوا عن أنك تنطق وتبلغ من قِبَل الحق فى التشريع وفى الحكم ، وبعد المجىء يستغفرون الله ويستغفر لهم الرسول ، تأييداً لاستغفارهم لله ، حينئذ يجدون الله تواباً رحيماً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

إذن لا بد أن نستقبل الإيمان بالإقبال على كل ما جاء به رسول الله ، فساعة حكّم المنافقون غيره برغم إعلانهم للإسلام جاء الحكم بخروجهم من دائرة الإيمان ، وعلى المؤمنين أن يتعظوا بذلك .

ونلحظ فى قول الحق : « فلا وربك » وجود « لا » نافية ، وأنه ـ سبحانه ـ أقسم بقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » ، ونعلم أن المنافقين قد ذهبوا فحكّموا غير رسول الله ، مع أنهم شاهدون بأنه رسول الله فكيف يشهدون أنه رسول الله ، ثم يحكمون غيره ولا يرضون بقضائه ؟ وتلك قضية يحكم الحق فيها

فيقول : لا . هذه لا تكون أبداً . إذن فـ« لا » النافية جاءت هنا لتنفى إيمانهم وشهادتهم أنه رسول الله ؛ لأنهم حكّموا غيره . فإذا ثبت أنهم شهدوا أنه رسول الله ثم ذهبوا لغيره ليقضى بينهم إذا حدث هذا . فحكمنا فى القضية هو : لا يكون لهم أبداً شرف شهادة أنه رسول الله .

وبعد ذلك أقسم الحق فقال : « وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ونحن الخلق لا نقسم إلا بالله ، لكنه سبحانه له أن يقسم بما شاء على ما يشاء ، يقسم بالمادة الجبلية :

﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ ﴾

(سورة الطور)

ويقسم بالذاريات :

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ ﴾

(سورة الذاريات)

والذاريات هى الرياح ، ويقسم بالنبات :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ ﴾

(سورة التين)

ويقسم بالملائكة :

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ ﴾

(سورة الصافات)

ولكنك إن نظرت إلى الإنس فلن تجده أقسم بأحد من سيد هذا الكون وهو الإنسان إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بحياته فقال :

﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢ ﴾

(سورة الحجر)

و« لعمرك » يعنى : وحياتك يا محمد إنهم فى سكرتهم يعمهون ، أى هم فى غوايتهم وضلالهم يتحيرون فلا يهتدون إلى الحق ، وأقسم الله بعد ذلك بنفسه ، فقال :

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الذاريات)

وساعة يقول : « فورب السماء والأرض » . فلا بد أن يأتى بربوبيته لخلق عظيم نراه نحن ، ولذلك قال :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

يعنى إذا فكرت أيها الإنسان فى خلق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خلق الناس .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام ذو منزلة عالية ، إياكم أن تظنوا أنه حين قال : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » أن محمداً قد دخل فى الناس ، إنّه سبحانه يوضح : لا ، سأقسم به كما أقسمت بالسماء والأرض ، « فوربك لنسئلنهم » ، ولماذا يقسم برب السماء والأرض ؛ لأن الربّ له قدرة عظيمة هائلة ، فهو يخلق ويربى ، ويتعهد ويؤدب .

إن خلق السماوات والأرض يكفى فيها الخلق وناموس الكون والتسخير . لكن عندما يخلق محمداً فلا يريد الخلق والإيجاد فقط، بل يريد تربية فيها ارتقاءات النبوة مكتملة فيقول له : فوربك الذى خلقك ، والذى سواك ، والذى رباك ، والذى أهَّلَكَ لأن تكون خير خلق الله وأن تكون خاتم الرسل ، ولأن تكون رحمة الله للعالمين ، يقسم بهذا كله فيقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » أبعد ما يدخل سبحانه فينا هذه المهابة بالقسم برب رسول الله نقول : لا نحكم محمداً ومنهجَه فى حياتنا ؟.

إذن فقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وحَكَّم كل مادتها مثل « الحُكْم » و« التحكيم » و« الحكمة » و« التحكم » وكل هذا مأخوذ من الحَكَمَة وهى حديدة اللجام الذى يوضع فى فم الفرس يمنعه به صاحبه أن يشرد ، ويتحكم فيه يميناً ويساراً ، فكذلك « الحِكْمَة » تعوق كل واحد عن شروده فى أخذ حق غيره ، فالتحكيم والحكم ، والحكمة ، كلها توحى بأن تضع الشىء فى موضعه الصحيح .

وكلمة « شجر » مأخوذة من مادة (الشين والجيم والراء) وإذا رأيتها فافهم أنها مأخوذة من الشجر الذى تعرفه . وهناك نباتات لا تلتصق ببعضها ، وهناك نباتات تكبر فيلتصق بعضها ببعض فتتشابك ، كما نرى مثلاً شجراً متشابكاً فى بعضه ، وتداخلت الأفرع مع بعضها بحيث لا تستطيع أيها الناظر أن تقول : إن هذه ورقة هذه الشجرة أو ورقة تلك الشجرة . وإذا ما أثمرتا وكانتا من نوع واحد لا تقدر أن تقول : إن هذه الثمرة من هذه الشجرة ، ولا هذه الثمرة من تلك الشجرة ، أى أن الأمر قد اختلط .

« وشجر بينهم » أى قام نزاع واختلاط فى أمر ، فأنت تذهب لتفصل هذه الشجرة عن تلك ، وهذه الثمرة عن تلك الثمرة ، وساعة ترى أشجاراً من نوع واحد ، وتداخلت مع بعضها واختلطت ، لا يعنيك إن كنت جانى الثمرة أن تكون هذه الثمرة التى قطفتها من هنا أو من هناك ، فأنت تأخذ الثمرة حيث وجدت ، لا يعنيك أن تكون من هذه أو من تلك ، وإن كنت تستظل تحت شجر لا يعنيك أن تعرف هل جاء هذا الظل من ورق هذه الشجرة أو من تلك الشجرة ، فهذه فائدة اختلاط المتساوى ، لكن إذا أردتَ ورقة شجرة من نوع معين فأنتقيها لأننى أريدها لأمر خاص .

والخلق كلهم متساوون فكان يجب إن اختلطوا أن تكون المسألة مشاعاً بينهم ، لكن طبيعة النفس الشُحّ ، فتنازعوا ، ولذلك فالقاضى الذكى يقول للمتخاصِمَيْن : أتريدان أن أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ . فيفزعان ويقولان : أهناك خير من العدل ؟ . يقول : نعم إنه الفضل ، فمادامت المسألة أخوة واحدة ، والخير عندك كالخير عندى فلا نزاع ، أمّا إذا حدث الشجار فلا بد من الفصل .

ومن الذى يفصل ؟. إنه سيدنا رسول الله بحكم قول الحق : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . . فالإيمان ليس قولة تقال فحسب وإنما هو قولة لها وظيفة ، فأن تقول : لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله فلا بد أن لهذا القول وظيفة ، وأن تُحكِم حركة حياتك على ضوء هذا القول ، فلا معبود إلا الله ، ولا آمر إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا مشرع إلا الله ، فهى ليست كلمة تقولها فقط ! وينتهى الأمر ، ثم عندما يأتيك أمر يحتاج إلى تطبيقها تفرّ منه . « فلا وربك لا يؤمنون » بمنهج الإسلام « حتى يحكموك » فهذا هو التطبيق « فيما شجر بينهم » ولا يصح أن يحكموك صورياً ، بل لا بّد أن يحكموك برضا فى التحكيم ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » أى ضيقا « مما قضيت » . فعندما يحكم رسول الله لا تتوانوا عن حكمه ، ولا تضيقوا به « ويسلموا تسليما » أى يُذْعِنُوا إذعاناً .

إذن فالإيمان لا يتمثل فى قول يقال وإنما فى توظيف ذلك القول . بأن تلجأ إليه فى العمليات الحركية فى الحياة ، « فلا وربك لا يؤمنون » حتى يترجم الإيمان إلى قضية واقعية اختار الحق لها أعنف ساعات الحرج فى النفس البشرية وهى ساعة الخصومة التى تولد اللدد والميل عن الحق ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » لأنه قد يجد حرجاً ولا يتكلم .

وانظروا إلى الثلاثة : الأولى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » ، هذه واحدة ، « فاستغفروا الله » هذه هى الثانية ، « واستغفر لهم الرسول » هذه هى الثالثة ، هذه ممحصات الذنوب ، والذى يدخلك فى حظيرة الإيمان ثلاثة أيضاً : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هذه هى الأولى ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت » هذه هى الثانية ، « ويسلموا تسليماً » هذه هى الثالثة . إذن فالقولان فى رسول الله صلى الله عليه وسلم : دخول فى حظيرة إيمان ، وخروج من غلّ ذنب .

وهنا وقفة لا أبالغ إذا قلت : إنها شغلتنى أكثر من عشر سنين ، هذه الوقفة حول قول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » ذلك يارب تمحيص من عاصر رسولك صلى الله عليه

وسلم ، فما بال الذين لم يعاصروه ؟ فأين المحص الذى يقابل هذا لمن لم يعاصر حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، والرسول إنما جاء للناس جميعاً ، فكيف يوجد ممحص لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من هذا التمحيص ؟

هذه مسألة ظلت فى ذهنى ولا أجد لها جواباً ، إلا أنى قلت : لقد ثبت عندى وعند بعض أهل العلم أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال مطمئنا المؤمنين فى كافة العصور :

(حياتى خير لكم تُحْدِثون ويُحْدَثُ لكم فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم تُعْرض علىَّ أعمالكم فإن رأيتُ خيرا حمدت الله وإن رأيت شرا استغفرتُ لكم)[1] .

انظر إلى التطمين فى قوله صلى الله عليه وسلم :

(تعرض علىّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله ، وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم)[2] .

فاستغفار الرسول لنا موجود . إذن فما بقى منها إلا أن نستغفر الله ، وما بقى إلا « جاءوك » أى يجيئون لسنتك ولما تركت منها فصلى الله عليه وسلم هو القائل :

(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض)[3] .

فكما كان الأحياء يجيئونه ، فنحن نجيء إلى حكمه وسنته وتشريعه ، وهو يستغفر لنا جميعاً ، إذن فهذه منتهية ، فبقى أن نستغفر الله قائلين : نستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم ونتوب إليه ... نفعل ذلك إن شاء الله .

(١) رواه ابن سعد عن بكر بن عبدالله مرسلا ورمز السيوطى له بالحسن .
(٢) رواه ابن سعد .
(٣) رواه الحاكم عن أبى هريرة .

وقوله سبحانه وتعالى : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » أى لا يجدوا حرجاً عندما يذعنون لأى حكم تكليفى أو حكم قضائى ، والحكم التكليفى نعرفه فى : افعل ولا تفعل ، أما الحكم القضائى فهو عندما يتنازع اثنان فى شىء وهذا يقتضى أن نقبل الحكم فى النزاع إذا ما صدر عن رسول الله أو عن منهجه . إذن فلا بد أن نسلم تسليماً فى الاثنين : فى الحكم التكليفى ، وفى الحكم القضائى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) ﴾

وهنا يساوى الحق بين الأمر بقتل النفس والأمر بالإخراج من الديار ، فالقتل خروج الروح من الجسد بقوة قسرية غير الموت الطبيعى ، والإخراج من الديار هو الترحيل القسرى بقوة قسرية خارج الأرض التى يعيش فيها الإنسان ، إذن فعملية القتل قرينة لعملية الإخراج من الديار ، فساعة يُقتل الإنسان فهو يتألم ، وساعة يخرج من وطنه فهو يتألم ، وكلاهما شاق على الإنسان ، ويأتى الحق بهذين الحكمين اللذين سبقا فى قوم موسى عليه السلام ، فالحق يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة البقرة)

ويقال : إن قوم موسى عندما سمعوا هذا الحكم قام سبعون ألفاً منهم بقتل أنفسهم ، ونعلم أيضاً أن قوم موسى أخرجوا من ديارهم وذهبوا فى التيه . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

أى لا يدخلونها ولا يملكونها . والحق هنا يوضح : أن الإسلام لم يأت بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التى كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التى رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بد أن يضيعها . ومن لطف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله ابن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر ، وثابت بن قيس ؛ كل هؤلاء قالوا : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا ، وقال سيدنا عمر : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك . إذن فهذا لطف ، إنه بيّن لهم : لو كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى . ماذا كانوا يفعلون ؟ لكن ربنا استجاب لدعائهم :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

لقد استجاب الحق لهم ، لكن ماذا كان يحدث منكم لو كتب عليكم ذلك ؟ وسبب هذه الحكاية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ابن عمة اسمه « الزبير بن العوام » وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك واحد آخر اسمه « حاطب بن أبى بلتعة » كانا فى المدينة ومن زار المدينة المنورة يجد هناك منطقة اسمها « الحرة » وأرضها من حجارة سوداء كأنها محروقة ، وفيها بعض « الحيطان » أى : البساتين ؛ لأنهم يسمون البستان « حائطاً » ، فقد كانوا يخافون من طغيان السيل فيبنون حول الأرض المزروعة حائطاً ، يرد عنها عنف السيل ويحدد الحيازة فيها ، فكان لحاطب بن أبى بلتعة أرض زراعية منخفضة عن أرض الزبير بن العوام ، فالسيل يأتى أولاً من عند

أرض الزبير ثم ينزل إلى أرض حاطب ، ونعلم أن الأمطار تنزل متفرقة فى مكان ثم يتجمع الماء فى جدول صغير يسمونه « شراج » ومنه يروون بساتينهم .

فلما جاء السيل وأرادوا أن يرووا بساتينهم حدث خلاف بين الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة ، فأرض الزبير تعلو أرض حاطب ، وحاطب يريد أن تمر المياه لأرضه أولاً ثم يروى الزبير أرضه بعد ذلك . فلما تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم للزبير فقد كان الحق معه ، ولم يكن الرسول ليلوى الحق لمجرد القرابة ، فمن الناس من يحكم بالظلم ليشتهر بين الناس بالعدل ، فقد يتخاصم ابنه مع واحد آخر والحق مع ابنه ، فلكيلا يقول الناس : إنه جامل ابنه . يحكم على ابنه ! وهذا ليس عدلاً ؛ فالعدل أن تحكم بالحق ثم تطلب من ابنك أن يتنازل عن حقه ليصبح عطاؤه لغيره فضلاً . فالشجاعة هى أن تحكم بالحق ، وهناك شجاعة أقوى وهى أن تحكم بالحق وإن كان على نفسك ، لأن الحق أعز من نفسك .

ونص هذه الواقعة كما أوردها الإمام البخارى فى صحيحه بسنده قال :
« حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى عروة بن الزبير أن الزبير كانْ يحدث أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بَدْرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كان يسقيان به كلاهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : اسقِ يا زبير ثم أرسل إلى جارك ، فغضب الأنصارى ، فقال : يا رسول الله آنْ كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، قال عروة : قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »[1] .

فلما حكم رسول الله للزبير بأن يسقى زرعه ثم يرسل الماء إلى جاره لم يعجب ذلك

(١) رواه البخارى فى الصلح ومسلم فى الفضائل ، والترمذى فى الأحكام والنسائى فى القضاة وابن ماجه فى المقدمة .

حاطب بن أبي بلتعة ، فقال : لأن كان ابن عمتك ، والعربي يقول الكلمة ويترك لنباهة السامع أن يستنبط الباقي ، وكأنه يعني : حكمت له لأنه ابن عمتك . ولوى شدقيه ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة علمه أن ابن أبي بلتعة لم يقدر عدالة الحق والحكم . . وكان كثير من الناس ممن كانوا يتصيدون للإسلام يقولون : هو قد حكم أولاً أن يروى الزبير ثم يطلق الماء لحاطب ، فلما غضب حاطب بن أبي بلتعة قال له : اسق يا زبير واستوف حقك ، وخذ من الماء ما يكفيك ثم أرسله لجارك ، فقالوا : لماذا حكم أولاً بأن يسقى ثم يرسل الماء إلى جاره ثم عدل في الحكم ؟

الناس لم تفهم أن أرض الزبير عالية بينما أرض حاطب منخفضة ، وأنتم إذا نظرتم إلى أي وادٍ ؛ تجدون الخضرة والخصب في بطن الوادي وليس في السفح ؛ لأن الماء وإن جاء من الأرض العالية سينزل إلى الأرض المنخفضة ، وإذا رويت المنخفض أولا وأعطيته لا يصيب العالي شيء .

إذن فالحكم الأول كان مبنياً على التيسير والفضل من الزبير ، والحكم الثاني جاء مبنيًا على العدل ، ورسول الله بالحكم الثاني ـ وهو أن يستوفي الزبير حقه ويأخذ من الماء ما يكفيه ـ كأنه قال له : سنعدل معك بعدما كنا نجاملك ، فقال الحق سبحانه وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وإذا كان هذا هو الأمر فكيف لو فعلنا بهم مثلما فعل الرسول من الأمم السابقة؟ عندما أمروهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم، هذا الحكم لم ينفذه إلا عدد قليل منهم وهم الثابتون في الإيمان . وهكذا نعلم أن الحق لم يخل الأمة من ممتثلين ملتزمين يؤدون أمر الله كما يجب .

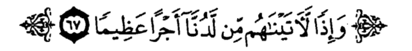
« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به » ولو فرضنا أن الله قال : اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم بعد ذلك فعلوه لوجدوا في ذلك الخير عما كان في بالهم ؛ لأن الناس يجب أن تفطن إلى أن تسأل نفسها ما غاية المؤمن حين يؤمن بإله ؟ وما غاية هذا الإيمان ؟

أنت فى دنياك تعيش مع أسباب الله المخلوقة لك ، وحين تنتقل إلى الله تعيش مع المسبب ، فما الذى يحزنك عندما قال لك : اقتل نفسك ؟ إنه قال لك : اقتل نفسك لماذا ؟ لأنك تنتقل للمسبب وتحيا دون تعب .

إن الحكم من الله هو ارتقاء بالإنسان ، ونحن فى حياتنا الدنيا نجد من يدق الجرس فيأتيه الطعام ، ويدق الجرس فيأتيه الشاى ، ويدق الجرس فتأتيه الحلوى . لكن لا يمكن أن ترتقى الدنيا إلى أن يوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء ببال الإنسان وُجد الشيء أمامه ، فلا يدق جرسا ولا يجهد نفسه ، فبالله الذى يعيش فى الأسباب ثم نريد أن ننقله إلى أن يعيش مع المسبب ، فهل هذه تحزنه ؟ لا ؛ لأنهم سيجدون خيرا أكثر .

إنك : لو قارنت الأمر لوجدت الدنيا عمرها بالنسبة لك مظنون ، ومحدود ، ونعيمك على قدر إمكاناتك . لكنك حين تنتقل إلى لقاء الله لا تكون محدوداً ، لا بعمرك ولا بامكاناتك بل تعيش زمناً ليس له حدود ، وتنعم فيه على قدر سعة فضل الله .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً » . . وهذا الخير أشد تثبيتاً لغيرهم ؛ لأن من يرونهم ينفذون حكم الله . فلا بد أنهم وثقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم . إذن فهو يثبت من بعدهم . أو المعنى : لو أنهم فعلوا ما أمروا به من اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به لأنه الذى لا ينطق عن الهوى لكان ذلك خيرا لهم فى دنياهم وأخراهم وأقوى وأشد تثبيتا واستقرارا للإيمان فى قلوبهم وأبعد عن الاضطراب فيه .



فهم إذا فعلوا ما يوعظون به ، « وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما » وساعة تسمع

« من لدنَّا » اعرف أنها ليست من شأن ولا فعل الخلق . بل من تفضل الخالق . فالحق سبحانه وتعالى يرسل لنا منهجه بوساطة الرسل ، لكنه يوضح أن بعضاً من الناس منحهم عطفاً وأعطاهم من لدنه علماً ، فهو القائل :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن العلم الذى أعطاه الله لذلك العبد لم يَعْلَمْه موسى ، وعطاء الله للعلم خاضع لمشيئته ، ونعرف من قبل أن الحسنات والأعمال لها نظام ، فمن يعمل خيراً يأخذ مقابله كذا حسنة ، ولكنْ هناك أعمال حسناتها من غير حساب ويجازى عليها الحق بفضله هو . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نجد ذلك متمثلاً لنا فى كثير من تصرفاتنا ، تقول لابنك مثلاً : يا بنى كم أجرك عندى من هذا العمل ؟ فيقول لك : مائة جنيه . فتقول له : هذه مائة هى أجرك ، وفوقها خمسون من عندى أنا ، ماذا تعنى « من عندى أنا » هذه ؟ إنها تعنى أنه مبلغ ليس له دخل بأجر العمل .

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » لقد عرفنا من قبل أن هناك فرقًا بين القتل والموت ، صحيح أن كليهما فيه إذهاب للحياة ، لكن الموت : إذهاب للحياة بدون نقض البنية للجسم ، ولكن القتل : إذهاب للحياة بنقض البنية كأن يكسر إنسان رأس إنسان آخر ، أو يطلق رصاصة توقف قلبه ، وهذا هدم للبنية ، والروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات ، والروح لم تذهب أولاً . بل إن البنية هدمت أولاً . فلم تعد صالحة لسكنى الروح ، والمثل المعروف هو مصباح الكهرباء : إنك إن رميت عليه حجًرا صغيرًا ، ينكسر وينطفىء النور برغم أن الكهرباء موجودة لكنها لا تعطى نوراً إلا فى وعاء له مواصفات خاصة ، فإذا ذهبت هذه المواصفات الخاصة يذهب النور ، فتأتى بمصباح جديد له المواصفات الخاصة الصالحة فتجد النور قد جاء .

وكذلك الروح لا تسكن إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإن جئت لهذه المواصفات الخاصة وسيدها المخ ، وضربته ضربة قاسية ، فقد نقضت البنية ، وفى هذه الحالة تغادر الروح الجسد لأنه غير صالح لها ، لكن الموت يأتى من غير نقض

للبنية ، ومصداق ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

أى أن هناك أمرين : هناك موت ، وهناك قتل ، فالموت هو سلب الحياة ، والقتل هو سلب الحياة ، ولكن القتل سلب الحياة بعد نقض البنية التى تسكن فيها الروح ، ويختلف عن الموت لأن الموت هو خروج الروح دون قتل ، ولذلك يقولون : مات حتف أنفه . أى مات على فراشه ولم يحدث له أى شىء .

والذى يُقتل فى الشهادة يقول فيه ربنا :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من يقاتل فى سبيل الله قد امتثل لأمر الله فسوف يجد فضلاً أكثر ، فكيف يكون جزاء من يقتل نفسه امتثالا لأمر ربه ؟ إن امتحان النفس يكون بالنفس ، وليس امتحان النفس بالعدو . وما الميزة فى سيدنا إبراهيم ؟ هل قال له الحق : أنا سأميت ولدك ؟ أقال له إن واحداً آخر سيقتل ابنك ؟ لا ، بل قال له : اذبحه أنت . وهذه هى ارتقاء قتل النفس ، فيفدى الحق إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم . إذن فإذا جاء الأمر بأن يقتل الإنسان نفسه فلا بد أن هناك مرتبة أعلى . « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً ، وإذاً لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

ونحن أمام أمرين : إما أن يقتلوا ، وإما أن يخرجوا من ديارهم ، فقوله : « ولهديناهم صراطاً مستقيماً » لمن ؟ للذى قُتِل أم لمن خَرَج ؟ هو قول لمن أخرج من دياره لأنه مازال على قيد الحياة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ﴾

والفعل هنا : « يطع » والمطاع هو : الله والرسول ، أى أن هذا الأمر تشريع الله مع تطبيق رسوله ، أى بالكتاب والسنة ، وساعة تجد الرسول معطوفاً على الحق بدون تكرير الفعل فاعلم أن المسألة واحدة . . أى ليس لكل واحد منهما أمر ، بل هو أمر واحد ، قول من الله وتطبيق من الرسول لأنه القدوة والأسوة ؛ ولذلك يقول الحق فى الفعل الواحد :

﴿ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ ﴾ (من الآية ٧٤ سورة التوبة)

فما أغناهم الله غنىً يناسبه وأغناهم الرسول غنىً يناسبه فالفعل هنا واحد . فالغنى هنا من الله ورسوله ؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتثالا لأمره ، فتكون المسألة واحدة .

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهى قضية قد تشغل كثيراً من الناس الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مجلسه صلى الله عليه وسلم لا يُصد

عنه قادم ، يأتى فيجلس حيث ينتهى به المجلس ، فالذى يريد النبى دائما يستمر فى جلوسه ، والذى يريد أن يراه كل فترة يأتى كلما أراد ذلك.فثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الصبر عنه ، فأتاه يوما ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه ، وعُرِف الحزن فى وجهه ، فسأله النبى قائلا : ما بك يا ثوبان ؟ فقال والله ما بى مرض ولا علة ، ولكنى أحبك وأشتاق إليك ، وقد علمت أنى فى الدنيا أراك وقتما أريد ، لكنك فى الآخرة ستذهب أنت فى عليين مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة كنت فى منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا .

ونص الحديث كما رواه ابن جرير ـ بسنده ـ عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو محزون ـ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا فلان مالى أراك محزونا » ؟ فقال : يا نبى الله شيء فكرت فيه فقال : « ماهو » ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغدا تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » .. فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إليه فبشره[1] » .

وكيف تأتى هذه على البال ؟! إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفكر : هل ستدوم له هذه النعمة ؟ وتفكر فى الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ستعلو كل المنازل . وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبى صلى الله عليه وسلم لن تنتهى ولن تزول منه ، إنه يراه فى الدنيا ، وبعد ذلك ماذا يحدث فى الآخرة : فإما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها ، إن لم يدخل الجنة فلن يراه أبداً . وإن دخل الجنة والنبى فى مرتبة ومكانة عالية . فماذا يفعل ؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذى شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين ، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطمينا لهؤلاء : « ومن يطع الله والرسول فأولئك » أى المطيعون

(١) رواه ابن جرير .

لله والرسول « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » والمسألة جاءت خاصة بثوبان ، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحبين لرسول الله ، فأنت مع من أحببت ، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان . لقد كان كلام ثوبان سبباً فى الفتح والتطمين لكل الصديقين والشهداء والصالحين . وهى أصناف تستوعب كل المؤمنين ، فأبو بكر الصديق صِدِّيقٌ لماذا ؟ لأنه هو : المبالغ فى تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل : أى هذه تنفع أو لا تنفع ؟ فعندما قالوا لسيدنا أبى بكر : إن صاحبك يدعى أنه أتى بيت المقدس وعاد فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إن كان قال ذلك لقد صدق .

لم يعلل صدقه إلا بـ « إن كان قد قال ذلك » ، فهذا هو الصديق الحق ، فكلما قال محمد شيئا صدقه أبو بكر ، وأبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل بمجرد أن قال صلى الله عليه وسلم : إنى رسول . قال أبو بكر : نعم . إذن فهو صديق .

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سَبَقوا إلى الإسلام ؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول ، هم جربوا النبى عليه الصلاة والسلام ، وعرفوه ، فَلَمَّا تحدث بالرسالة ، صدقوه على الفور ؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول ، ومثال ذلك : سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ ماذا قالت عندما قال لها النبى : إنه يأتينى كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رَئِيًّا ومَسًّا من الجن يصيبنى .

فقالت خديجة : « كلا والله ما يُخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »[1] . وهذا أول استنباط فقهى فى الإسلام .

هذا هو معنى « مع النبيين والصديقين » ، « والشهداء » هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، لكن على المؤمن حين يقاتل فى سبيل الله ألا يقول : أنا أريد أن أموت شهيداً . ويلقى بنفسه إلى التهلكة ، إياك أن تفهمها هكذا ، فأنت تدافع عن رسالة ولا بد أن تقاتل عدوك بدون أنك تمكنه من أن يقتلك ؛ لأن تمكينه من قتلك ، يفقد المسلمين

(١) رواه البخارى .

مقاتلاً . فكما أن الشهداء لهم فضل ؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل . فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق ، وهذه لا يثبتها إلا الشهداء .

لكن هل يمكن أن نصبح جميعاً شهداء ؟ ومن يحمل منهج الله إلى الباقين ؟ إذن فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب ، فهذا له مهمة وهذا له مهمة ، ولذلك كانت « التقية » وهى أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالى الكفار ظاهرا وقلبه مطمئن بالعداوة لهم انتظارًا لزوال المانع وذلك استبقاء لحياته كى يدافع ويجاهد فى سبيل الله . وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين فى أن الإنسان إذا قتل فى سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خير ، هذا يثبته الشهيد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ يسمعها من لم يقبل على الشهادة ، فهناك من يقول : هبى يا رياح الجنة ، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كى يسمع من خلفه ، ومفرد شهداء ، إما شهيد وهو الذى قتل فى سبيل الله ، وإمّا هى جمع شاهد ، فيكون الشهداء هم الذين يشهدون عند الله أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول الله أنه بلغهم .

والمعانى كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئاً يقول به وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى الاثنين : من يقتل فى سبيل الله ، ومن يبقى بدون قتل فى سبيل الله ؛ لأن الأول يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد ، والثانى يُعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد أيضاً :

﴿ لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

و« الصالحين » والصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية فى الأرض . فكل شيء يؤدى نفعاً يتركه على حاله ، وإن أراد أن يزيد فى النافع فليرق النفع منه ، فمثلاً : الماء ينزل من السماء ، وبعد ذلك يكون جداول ، ويسير فى الوديان ، وتمتصه الأرض فيخرج عيوناً ، فعندما يرى عيناً للمياه فهو يتركها ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح على صلاحه ، وهناك آخر يرقى النفع من تلك النعمة فيبنى حولها كى يحافظ عليها . إذن فهذا قد أصلح بأن زاد فى صلاحه .

وهناك ثالث يقول : بدلاً من أن يأتى الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا الماء فى القِرَب أو على رءوس الحاملين ، لماذا لا أستخدم العقل البشرى فى الارتقاء بخدمة الناس لينتقل الماء إلى الناس فى أماكنهم ، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد . ومن فعل ذلك يسَّر على الناس ، فيكون مصلحاً بأن جاء إلى الصالح فى ذاته فزاده صلاحاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وحسن أولئك رفيقاً » . و« أولئك » تعنى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا توجد رفقة أفضل من هذه ، والرفيق هو : المرافق لك دائماً فى الإقامة وفى السفر ، ولذلك يقولون : خذ الرفيق قبل الطريق ، فقد تتعرض فى الطريق لمتاعب وعراقيل ؛ لأنك خرجت عن رتابة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق . ونعرف أن الأصل فى المسائل المعنوية : كلها منقولة من الحسيات ، وفى يد الإنسان يوجد المرفق . . يقول الحق :

﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وساعة يكون الواحد مرهقاً ورأسه متعباً يتكئ على مرفقه ليستريح ، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يتكئ على مرفقه أيضاً . إذن فالمادة كلها مأخوذة من الرفق ، فالرفيق مأخوذ من الرفق و« المرافق » مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه ، وفى كل بيت توجد المرافق وهى مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه ، وفى الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التى تخدم الفلاح ، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم ، ومكان الأكل ، وقد يربط الفقير حماره فى زاوية من الحجرة ، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة . أى يكون فى المنزل مطبخ مستقل ، ومحل لقضاء الحاجة ، وحظيرة مستقلة للمواشى ، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل ، وهذه كلها اسمها « مرافق » لأنها تريح كل الناس .

إذن فقوله : « وحسن أولئك رفيقا » مأخوذة من الرفق وهو : إدخال اليسر ، والأنس ، والراحة ، ويكون هذا الإنسان الذى أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين ،

والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

وقد يقول قائل : كيف يجتمع كل هؤلاء فى منزلة واحدة ؛ على الرغم من اختلاف أعمالهم فى الدنيا ، أليس الله هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : مادام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول ، أليس ذلك من سعيه ؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هى من سعى العبد ؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين ؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه ، ويصبح من حقه أن يكون فى معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . وقد تكون الصحبة تكريما لهم جميعا ليأنسوا بالصحبة ، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

فساعة يرى واحد منزلته فى الآخرة أعلى من آخر ، إياك أن تظن أنه سيقول : منزلتى أعلى من هذا ؛ لأنه مادام قد ترك الأسباب فى الدنيا وعاش مع مسبب الأسباب ، فهو من حبه لله يحب كل من سمع كلام ربنا فى الدنيا فيقول لكل محب لله : أنت تستحق منزلتك ، ويفرح لمن منزلته أعلى منه .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرة ، بعضهم يحب أن ينجح فقط ، وبعضهم يحب العلم لذات العلم ، وعندما يجد عشاق العلم تلميذاً نجيباً ، أيكرهونه أم يحبونه ؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويفرحون به ويقولون : هذا هو الأول علينا ؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين ، فكذلك المؤمن الذى يكون فى منزلة بالجنة ويرى غيره فى منزلة أعلى ، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة ، لا . لأنه من حبه لربه وتقديره له يحب من كان طائعاً لله ويفرح له ، مثله مثل التلميذ الذى ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حقد . وهكذا نجد أن الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لا تخدش قول الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وهناك بحث آخر فى قوله الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . فـ « اللام » تفيد الملك والحق ، كقولنا : ليس لك عندى إلا كذا ، أى أن هذا حقك ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » أى هى حق للمؤمن وقد حددت العدل فى الحق ولم تحدد الفضل ، ولذلك قال بعدها :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فالفضل من الله يستمد حيثيته من سعى الإنسان ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » حددت الحق الذى لك والذى توجبه عدالة التكليف ، لكن ربنا لم يقل : إن هذا العطاء لله من الحق والعدل . بل هو من الفضل ، والفضل من الله هو مناط فرح المؤمن ؛ لأنك مهما عملت فى التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله ، ولذلك أوضح سبحانه لنا : تنبهوا . . أنا كلفتكم وقد تعملون وتجتهدون ، لكن لا تفرحوا مما سيجمعه هذا العمل من حسنات ، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم ربكم من فضله قال سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وذلك الفضل من الله يرد على من يقول : كيف يجىء « ثوبان » أو مَن دون « ثوبان » ويكون فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء ومع الصالحين ، ونقول : لو لم تكن منزلته أدنى لما كان فى ذلك تفضل ، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته لله ولرسوله فوق كل طاعة ، أما حبه لله وللرسول ، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله له ـ وما توفيقى إلا بالله ـ والفضل هو مناط فرح المؤمن ، « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » . ونحن نرضى ونفرح ونكتفى بعلم الله ؛ لأنه سبحانه يرتب أحكامه على علم شامل ومحيط ، ويعرف صدق الحب القلبى وصدق الودادة ،

وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه فى المنزلة .

وبعد أن أمّن الحق لنا داخلية وطننا الإيمانى ، وتجمعنا الإسلامى بالأصول التى ذكرها ، وهى : أن نؤدى الأمانات ، وإذا أدينا الأمانات فلن نحتاج إلى أن نتقاضى ، فإذا غفل بعضنا ولم يؤد أمانة ، وحدث نزاع فسيأتى الحكم بالعدل . وبعد ذلك نحتكم فى كل أمورنا إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتكم إلى الطواغيت ، وهات لى مجتمعا إيمانيا،واحدا يؤدى الأمانة ولا يشعر بالاطمئنان .

وعرفنا أن الأمانة هى : حق لغيرك فى ذمتك أنت تؤديه ، وكل ما عداك غير . وأنت غير بالنسبة لكل ما عداك ، فتكون كلها مسألة فى الخير المستطرق للناس جميعا ، وإذا حدثت غفلة يأتى العدل . والعدل يحتاج حكما ، وعندما نأتى لنحكم نحتكم لله وللرسول ، وإياك أن تتحاكم إلى الطاغوت . وكان « كعب بن الأشرف » يمثل الطاغوت سابقا ، والآن أيضا يوجد من هم مثل كعب بن الأشرف . بل هناك طواغيت كثيرة .

إنك إذا رأيت خللاً فى العالم الإسلامى فأعلم أن هناك خللاً فى تطبيق التكليف الإسلامى ، فكيف تستقيم لنا الأمور ونحن بعيدون عن منهج تكاليف الإسلام المكتملة ؟ ولو استقامت الأمور لكانت شهادة بأن هذا المنهج لا ضرورة له . لكن إذا حدث شىء فهذا دليل صدق التكليف .

وبعد أن طمأننا على المصير الأخروى مع النبيين والصديقين والشهداء أوضح سبحانه : لاحظوا أن كل رسالة خير تأتى من السماء إلى الأرض ما جاءت إلا لمحاربة فساد وقضاء على فساد طام فى الأرض ؛ لأن النفس البشرية إما أن يكون لها وازع من نفسها بحيث إنها قد تهم مرة بمعصية ثم توبخ نفسها وتعود إلى المنهج ، فتكون مناعتها ذاتية ، وإما أن المناعة ليست ذاتية فى النفس بل ذاتية فى البيئة ، فمثلاً نجد واحداً لا يقدر على نفسه . لكنه يجد واحداً آخر يقول له : « هذا عيب » . وهذا يعنى أن البيئة مازال فيها خير ، وكانت الأمم السابقة قد خلت من المناعة وصارت على هيئة ومسلك واحد وهو ما يصوره الحق بقوله :

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

إذن فقد فسدت مناعة الذات ، ولا توجد مناعة فى المجتمع ، فتتدخل - إذن - السماء . لكن الحق فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وميزها على غيرها من الأمم لأن مناعتها دائماً فى ذوات أفرادها . فإن لم تكن فى ذوات الأفراد ففى المجموع ، فلا يمكن أن يخلو المجتمع الإيمانى من فرد يقول : لا . ولذلك لن يأتى رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو كانت ستحدث طامة وفسد بها المجتمع ولا نجد فيه من يقول : لا . . لكان ولا بد أن يأتى رسول ، لكن محمدا كان خاتم النبيين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى فضل أمة محمد بأن جعل وازعها دائما إما من ذاتها بحيث يرد كل فرد نفسه وتكون نفسه لوّامة ، وإمّا مناعة فى المجتمع وكل واحد فيه يوصِى ، وكل واحد يوصَى ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

تواصوا لماذا ؟ لأن النفس البشرية أغيار ، فقد تهيج نفسى لأخرج عن المنهج مرة ؛ فواحد آخر ينهانى ، وأنا أردها له وأهديه وأرشده إلى الصراط المستقيم ، وواحد آخر أخطأ فأنا أقول له وأنهاه . إذن فقوله : « وتواصوا » يعنى : ليكن كل واحد منكم موصياً وموصًى . فكلنا يَنظر بعضنا ويلاحظه ؛ مَن ضعف فى شىء يجد من يقوِّمه ، فلا ينعدم أن يوجد فى الأمة المحمدية موصٍ بالخير ومُوصى أيضا بالخير ، وتوجد فى النفس الواحدة أنه موصٍ فى موقف ومُوصًى فى موقف آخر ؛ بحيث لا يتأبى إن وصاه غيره ؛ لأنه كان يوصى بالأمس ، وكما قالوا : « رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى » .

وبعد أن استكمل الحق بناء البيئة الإيمانية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصرتم أنتم آخر الأمم . فهو سبحانه يطمئننا على أن الشر لا يطم عندنا وستبقى فينا مناعة إيمانية حتى وإن لم يلتزم قوم فسيلتزم آخرون . وإن لم يلتزم الإنسان فى كل

تصرفاته ، فسيلتزم فى البعض ويترك البعض ، ولو لم تتدخل السماء بمنهج قويم لصار العالم متعبا . وكيف يتعب العالم ؟ إن العالم يتعب إذا تعطلت فيه مناهج الحق الذى استخلفنا فى الأرض . فتطغى مظاهر الجبروت والقوة على مظاهر الضعف . ويتحكم فى كل إنسان هواه .

وفى عالمنا المعاصر نرى حتى فى الأمم التى لا تؤمن بدين لا تترك شعوبها لهوى أفرادها ، بل ينظمون الحياة بتشريعات قد تتعبهم ، ووضعت الأمم غير المتدينة لنفسها نظاما يحجز هوى النفس ، ونقول لهم : أنتم عملتم على قدر فكركم ، وعلى قدر علمكم بخصال البشر ، وعلى قدر علمكم بالطبائع وأنتم تجنيتم فى هذه ؛ لأنكم تقننون لشىء لم تخلقوه بشىء لم تصنعوه .

وأصل التقنين : أن تقنن لشىء صنعته ، كما قلنا : إن الذى يضع برنامج الصيانة لأى آلة هو من صنع الآلة ، فالذى صَنَع التليفزيون أيترك الجزار يضع للتليفزيون برنامج الصيانة ؟ لا ، فمن صنع التليفزيون هو الذى يضع قانون صيانته ، فما بالنا بالذى خلقنا ؟ إنه هو الذى يضع قانون صيانتى : بـ « افعل ولا تفعل » ، فأنتم يا بشر تتحكمون فى أشياء بأهواء بعض الناس وتقولون : افعل هذه ولا تفعل هذه ، فعلى أى أساس عرفتم شرور المخالفات ؟ هل خلقتم أنتم النفس وتعرفون ملكاتها ؟ لا . بدليل أنكم تعدلون قوانينكم ، ويحدث التعديل - كما قلنا - لأن المشرع يتبين خطأ فيستدرك الخطأ ، والمشرع البشرى يخطئ لأنه يقنن لما لم يصنع ، فإذا كنا لا نريد أن يظهر خطأ فلنترك التقنين لمن صنع وهو الله .

والتاريخ البشرى يؤكد أن الفساد يطم عندما يتعطل منهج السماء ، والسماء تتدخل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المنتفعون بالشر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر ليسلبهم هذه الهيمنة والسيطرة والقهر والجبروت والانتفاع بالشر ، بل يحاربون رسالات السماء ، ويلفتنا الحق إلى أن أهل الشر والناس المنفلتين من مناهج السماء وغير المتدينين ، سيسببون لكم متاعب ، فبعدما توطنون أنفسكم التوطين الإيمانى انتبهوا إلى خصومكم وإلى أعدائكم فى الله لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى هذه القضية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾

لا يقال لك : خذ حذرك إلا إذا كان هناك عدو يتربص بك ؛ فكلمة : « خذ حذرك » هذه دليل على أن هذا الحذر مثل السلاح ، مثلما يقولون : خذ بندقيتك ، خذ سيفك ، خذ عصاك ، فكأن هذه آلة تستعد بها فى مواجهة خصومك وتحتاط لمكائدهم ، ولا تنتظر إلى أن تغير عليك المكائد ، بل عليك أن تجهز نفسك قبل ذلك على احتمال أن توجد غفلة منك ، هذا هو معنى أخذ الحذر ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذا يعنى : إياك أن تنتظر حتى يترجموا عداءهم لك إلى عدوان ؛ لأنهم سيعجلونك فلا توجد عندك فرصة زمنية كى تواجههم . فلا بد لكم أيها المؤمنون من أخذ الحذر لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج السماء أن يسيطر على الأرض . فحين يسيطر منهج السماء على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس . ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر فلن يجدوا لهم فرصة سيادة .

« فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » أى لتكن النفرة منكم على مقدار ما لديكم من الحذر ، و« ثبات » جمع ثُبَة وهى الطائفة أى انفروا سَرِيّة بعد سَرِيَّة و« جميعا » أى اخرجوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يهيج من الشر . فإن هاجمتنا فصيلة أو سرية ، نفعل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التى تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لتعبئة عامة فنحن ننفر جميعا . ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغيارًا قد تأتى فى نفوسهم مع كونهم مؤمنين . فقد تخور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، وماداموا هم الذين قد طلبوا القتال فلا بد أن يفرحوا حين يأتى لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده لذلك قال لهم :

﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

فأوضح لهم الحق أن فكروا جيدا فى أنكم طلبتم القتال وإياكم ألا تقاتلوا عندما نكتب عليكم هذا القتال لأننى لم أفرضه ابتداءً ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم ، ولأن الكلام مازال نظريا فقد قالوا متسائلين :

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد تعجبوا واستنكروا ألا يقاتلوا فى سبيل الله ، خصوصاً أنهم يملكون السبب الذى يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن ماذا حدث عندما كتب الحق عليهم القتال ؟ :

﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال وبقيت القلة المؤمنة . وكانت مقدمات هؤلاء المتهربين من القتال هى قولهم رداً على نبيهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فقالوا :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾

(من الاية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة فى استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السرّ فى اصطفاء طالوت ، فهو قوى والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم ، والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يمحصهم ليختبر القوى من الضعيف فقال لهم طالوت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الاية ٢٤٩ سورة البقرة)

والتمحيص هنا ليعرف من منهم يقدر على نفسه وليختبر قوة التحمل عند كل فرد مقاتل ، فليس مسموحاً بالشرب من ذلك النهر إلا غرفة يد . فشربوا من النهر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق أن يصفيهم تصفية جديدة ، وعندما رأوا جيش جالوت قالوا :

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وما الضرورة فى كل هذه التصفيات ؟ لقد أراد الله ألاّ يَحْمِلَ الدفاعَ عن منهجه إلا المؤمنون حقاً ، وهم مَنْ قالوا :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

لماذا أعطانا ربنا هذه الصورة من التصفيات ؟ كى نفهم أن النفس البشرية حين تواجه بالحكم نظرياً لها موقف ، وحين تواجه به تطبيقياً لها موقف ولو بالكلام ، وحين تواجه به فعليا يكون لها موقف ، وعلى كل حال فقليل من قليل من قليل هم الذين نصرهم الله . إذن فيريد سبحانه أن يربى فى نفوسنا أنه جل وعلا هو الذى يهزم ، وهو الذى يَغْلِب، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا قلت لكم انفروا ثبات أو انفروا جميعاً واعلموا أن النفس البشرية هى بعينها النفس البشرية ، وستتعرض للذبذبة حين تواجه الحكم للتطبيق ، ولذلك يأتى هنا بقوله الحق :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾

فساعة ندعو إنساناً منكم للحرب قد يبطىء ويتخاذل ، مثلما قال فى آية أخرى :

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة التوبة)

و« اثاقلتم » تعنى : أن هناك من يتثاقل أي ينزل إلى الأرض بنفسه ، وعلينا أن نفرق بين من ينزل بجاذبية الأرض فقط ، وبين من يساعد الجاذبية فى إنزاله ، فمعنى « أثاقل » أى تباطأ ، وركن ، وهذا دليل على أنه يريد أن يتخاذل ، وهؤلاء لم يتباطأوا فحسب بل إنهم أقسموا على ذلك . ومنهم من كان يثبط ويُبطِّىء غيره عن الغزو كالمنافق عبدالله بن أبيّ .

« وإن منكم لمن ليبطئن » فافهموا وخذوا هذه المناعة ضد من يعوق زحف المنهج قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة نكون قد عرفنا قوتنا وأعددنا أنفسنا على أساس المقاتلين الأشداء . لا على من يتباطأون ويتثاقلون ، فهناك من يفرح ببقائه حياً عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم ، فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : « فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . لقد تراخى وبقى ، وعندما تأتيهم المصيبة من قتل ، أو من هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أننى لست معهم .

إذن تثاقله وتخلفه وتأخره عن الجهاد ، كان عن قصد وإصرار فى نفسه . وهذه قمة التبجح فهو مخالف لربنا وعلى الرغم من ذلك يقول : أنعم الله علىّ ، مثله كمثل الذى يسرق ويقول : ستر الله علىّ ، وهذه لهجة من لم يفهم المنهج الإيمانى ، فيقول : « قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيداً ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين : إن من قال ذلك دخل فى الشرك ، فالمصيبة فى نظره إما قتل وإما هزيمة . ثم ماذا يكون موقف المتخاذل المتثاقل المتباطىء عند الغنيمة أو النصر ؟ يقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن

﴿لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

إذن فالعلّة فى قوله : يا ليتنى كنت معهم ليست رجوعاً عما كان فى نفسه أولاً ، بل هو تحسّر أن فاتته الغنيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية فى الآية تعطينا لقطة إيمانية ، فيقول : « ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

والجملة الاعتراضية هى قوله : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة كأن المودة الإيمانية ليس لها ثمن عنده ، فلو كان لها أدنى تقدير لكان عليه ألا يقول فى البداية : أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولكان مع المقاتلين المسلمين ، لكنه يرغب فى الفوز والغنيمة فقط ، ويبتعد عن المسلمين إذا ما أصابتهم الهزيمة أو استشهد عدد منهم .

وبذلك يكشف لنا الحق موقف المتخاذلين ويوضح لنا : إياكم أن تتأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثباتٍ أو حين تنفرون جميعاً. واعلموا أن فيكم مخذلين وفيكم مبطئين وفيكم متثاقلين ، لا يهمهم إلا أن يأخذوا حظاً من الغنائم ، ولذلك يحمدون الله أن هزمتم ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائم ويتمنونها إن انتصرتم ولم يكونوا معكم ، إياكم أن تتأثروا بهذا وقد أعطيتم هذه المناعة حتى لا تفاجأوا بموقفهم منكم وتكونوا على بصيرة منهم . والمناعات ما هى إلا تربية الجسم ، إن كانت مناعة مادية ، أو تربية فى المعانى ، إن حدث مكروه فأنت تملك فكرة عنه لتبنى ردّ فعلك على أساس ذلك .

ونحن عندما يهاجمنا مرض نأتى بميكروب المرض نفسه على هيئة خامدة ونطعّم به المريض ، وبذلك يدرك ويشعر الجسم أن فيه مناعة ، فإذا ما جاء الميكروب مهاجماً الجسم على هيئة نشيطة ، فقوى المقاومة فى الجسم تتعارك معه وتحاصر الميكروب ، فكأن إعطاء حقن المناعة دربة وتنشيط لقوى المقاومة فى الجسم ، وقد أودعها الله فى

دمك كى تؤدى مهمتها ، كذلك فى المعانى يوضح الحق لكم : سيكون منكم من يفعل كذا وكذا ، حتى تعدُّوا أنفسكم لاستقبال هذه الأشياء إعداداً ولا تفاجأون به ؛ لأنكم إن فوجئتم به فقد تنهارون . فإياكمْ أن تتأثروا بهذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

ومادة : « شرى » ومادة « اشترى » كلها تدل على التبادل والتقايض ، فأنت تقول : أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم ؛ أى أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم ، وشرى تأتى أيضا بمعنى باع مثل قول الحق :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فالجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام فى الجب كانوا فيه من الزاهدين . وبعد ذلك باعوه بثمن بخس ، إذن فـ « شرى » من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع وبمعنى الشراء ؛ لأن المبيع والمشترى يتماثلان فى القيمة ، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع ، فلم يكن هناك نقد متداول ، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر ، فواحد يشترى التمر وآخر يشترى الحب ، والذى جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال .

وما الفرق بين السلع والمال ؟ . السلعة هى رزق مباشر والمال رزق غير مباشر .

فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش ، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفا ولا تجده ؛ أينفعك جبل الذهب ؟. لا . إذن فالرغيف رزق مباشر ؛ لأنك ستأكله ، أما الذهب فهو رزق غير مباشر ؛ لأنك تشترى به ما تنتفع به . وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة ؛ فالسلعة المستفاد منها مباشرة هى رزق مباشر ، ندفع ثمنها مما لا ننتفع به مباشرة ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء . وأنتم تعلمون أن البائع يعطى سلعة ويأخذ ثمنا ، والشارى يعطى ثمنا ويأخذ سلعة ، والحق يقول هنا :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ، ومنزلة الشهداء ؛ ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وقال بعدها :

﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا فى حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فاطر)

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشىء الذى تعطيه بالشىء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أن يضحى به فى سبيل الآخر ؟ .

والحق قد وصف الحياة بأنها « الدنيا » ولا يوجد وصف أدنى من هذا ، فأوضح المسألة : إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة ـ إذن ـ رابحة ، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية ، ولا تقل كم عمر الدنيا ، لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن ، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد : هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟ . .

إذن فقيمة الدنيا هى : مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظنون ، وعلى الرغم من ارتفاع متوسطات الأعمار فى القرن العشرين ، فالبعض يقول : متوسط الأعمار فى أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة ، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً ، أو فتى ، أو رجلاً ، أو شيخاً .

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو : مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين ، إنما قارنها بوجودها معك أنت ، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال ، ستجد أن تنعمك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود .

والإنسان منا يظل يُربَّى إلى أن يبلغ الحُلُم . فإذا ما بلغ الحُلُمَ وأصبحت له حياة ذاتية ، أى أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للأم ، بينما فى طفولته كان كل اعتماده على أسرته ، أبوه يأتى له بالملبس فيلبسه ؛ وبالمطعم فيأكله ، ويوجهه فيتوجه ، لكن حينما توجد له ذاتية خاصة يقول لأبيه : هذا اللون لا يعجبنى ! والأكل هذا لا يعجبنى ! ! هذه الكلية لن أذهب إليها . ولا توجد للإنسان ذاتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع أن ينسل مثله ، فإذا ما أصبح كذلك نقول له : هذا هو النضج ، وهو الذى يجعل لك قيمة ذاتية .

إنك إذا زرعت شجيرة بطيخ . فأنت ترعاها سقياً وتنظيماً وتسميداً ، وهى مازالت صغيرة وتتعهدها كى لا تخرج مشوهة ، حتى تنضج ، وساعة تنضج يكون الشغل الشاغل قد انتقل من الشجيرة إلى الثمرة « البطيخة » ، فيقال صار لها ذاتية ؛ لأنك إن شققتها لتأكلها تجد « اللب » قد نضج ، وإن زرعته تأتى منه شجيرة أخرى .

ولكن إذا ما قطفت الثمرة قبل النضج فأنت قد تجد « اللب » أبيض لم ينضج بعد ، فلا تصلح تلك البذور لأن تأتى وتثمر مثلها ، وإذا كان « اللب » نصفه أبيض ونصفه أسود ، فهى لم تنضج تماما ، أما إذا وجدت « لبّها » أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار ، وتجد الحلاوة متمشية مع نضج البذرة . فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الخلق أكل الثمرة قبل أن تُربى وتنضج البذور ولانْقَطَعَ النوع ؛ لذلك لم يجعل ربنا حلاوة الثمرة إلا بعد أن تنضج البذور ، وكذلك الإنسان ، والحق يقول :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النور)

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه يلهو ويرتع فى البيت ويرى هذه وهذه ، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته فعليه أن يستأذن ، وحين يكون الإنسان بهذا الشكل تصير له ذاتية ، ولنفترض أنه سيعيش عدداً من السنين تبلغ حوالى الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل إنّه سيقضى مراهقته فى التعلم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويتمتع ، ثم لنسأل : كم سنة سيتمتع ؟ سنجدها عدداً قليلاً من السنوات .

إذن فالحياة محدودة ، والمتعة فيها على قدر إمكاناته ، فقد يسكن فى شقة من حجرتين أو فى شقة مكونة من ثلاث حجرات ، أو فى منزل خاص صغير أو حتى فى قصر ، وقد يركب سيارة أو يمشى على قدميه ، باختصار على قدر إمكاناته ، أما فى الآخرة فالموقف مختلف تماماً ، سيسلم نفسه إلى حياة عمرها غير محدود ، فإن قارنت المحدود بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متيقنة والنعيم فيها على قدر سعة فضل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، فتكون هذه هى الصفقة الرابحة التى لا تبور .

ولماذا يدخل الله العبد فى عملية البيع هذه ؟ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إن لم تَقْتُل أو تُقْتَل فى سبيل الله لابد أن يوضح لك كيفية الغاية التى تأخذ بها الفوز فى الآخرة ، ولن تأخذ هذا

الفوز بالكلام فقط ، ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله ، إنّه تأسيس المجتمع الذى يؤدى كل امرىء فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويبنى جسمه من كدهم وتعبهم ، وهات مجتمعاً لا يؤمن بالله وقل : يأيها الناس نريد أن يؤدى كل واحد منكم الأمانة التى عنده ، نريد أن نحكم بالعدل ، فسيفرح أهل هذا المجتمع .

إذن فلكى نحمى المجتمع لابد أن نؤدى الأمانة وأن نقيم العدالة . ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين .

قل لى بالله عليك : لو لم يكن هذا دينا من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدل من هذا ؟ .

إن مثل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه . وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه : هذا هو المجتمع الذى ستقاتلون من أجله ، واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شىء إنما يقاس بزمن الغاية له ، فإن قتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتصل إلى الجنة ، والحمق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن . نقول لهم : ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الغرق فى الحزن إذن ؟ .

والحق سبحانه وتعالى يكافىء من يقتل فى سبيل الله بحياة فى عالم الغيب وفيها رزق أيضاً . وبعض من الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق . ونقول لهم : إن الحق لم يقل : إن الشهداء أحياء عندكم ، بل أحياء عنده فى عالم الغيب . والحق سبحانه يطلب من الذى اقتنع بالإسلام أن ينشره ، وأن يعدل المسلمون بين أنفسهم لتنصلح أمورهم ، وأن يواجهوا أصحاب الشرّ الذى لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة .

ولم تأمر السماء بقتال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول من

السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم يبلغ قومه برسالته ، فإن آمنوا فبها ونعمت وإن لم يؤمنوا تتدخل السماء بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق ، فالرسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان يبلغ ، والسماء تعاقب من لم يؤمن . وما وجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال ، مثل بنى إسرائيل ، قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذى يُثَبِّت المبدأ وينشر المنهج لإعلاء كلمة الله ، وسيطرة الخلافة الأمنية الإيمانية على الأرض ، لم يشرع إلا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكأن الله لم يأمن خلقاً على خلق إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد جعلها أمينة . فأنتم أمناء أن تتولوا عن السماء تأديب المخالف ، وبذلك أخذتم المستوى العالى فى المنهج والمستوى العالى فى الرسالة . وأكرم الله نبيّه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

فجاء القتال وحارب المسلمون ـ وهم ضعاف ـ المجتمعات الفاسدة القوية . والشاعر يقول :

فقوى على الضلال مقيم ... وقطيع من الضعاف يُجارى

هذا القتال لو لم يجئ به دين ، ألَا تقوم به الأمم التى لا دين لها لإصلاح أمرها ؟ إنها تقاتل ، فلماذا يكون مباحاً منهم أن يقاتلوا كى يقرروا مبادئهم ، وعندما يأتى الدين ليشرع القتال يقولون : لا . هذا دين سيف .

نقول لهم : بالله لماذا إذن تحارب الشعوب ؟ أنت تجد شعوبا تتحارب وتجد ظلما يحارب ظلما آخر ، فإذا ما وجد عدل ليزحزح ظلما نقف فى طريقه ؟ لا . وذلك حتى

نعرف أن المسألة مسألة رسالة من السماء لا طغيان ذوات اجتمعوا أو بيتوا مؤامرة لصنع انقلاب يسيطرون به على الناس .

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لا يملكون أن يقاتلوا ، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم ؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتى ، يأتى عادة لا من قوى بل يأتى من ضعيف تعب كثيراً كى يثبت الإيمان ، والإسلام نادى ودعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة لكنه لم ينتصر كدين ولم يسطع إلا من المدينة . فمكة بلد محمد وفيها قبيلته قريش التى ألفت السيادة على الجزيرة كلها ولا أحد يستطيع أن يقرب منها بعدوان ، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال .

إن أى قبيلة تخاف أن تتعرض لها فى الطريق ؛ لأن القبائل ستأتى إلى قريش فى موسم الحج ، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش ، فلو أن الإسلام الذى صاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر فى مكة ربما قالوا : قبيلة عشقت السيادة ، ودانت لها أمة العرب فما المانع من أن تطمح فى أن يدين لها العالم كله ؟

وأراد الحق أن تكون قريش هى أول من يضطهد رسول الله ويحاربه ، والضعاف هم الذين يتبعونه ، وبعد ذلك يأتى النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من « المدينة » لتشهد الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد الإيمان بمحمد ، وها هوذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾

(سورة القمر)

فيقول : أى جمع هذا ونحن لا نقدر أن نحمى أنفسنا ؟ ويقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أن ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتى موقعة « بدر » فتثبت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أن يقال: إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة ؛ فالمقدمات لا توحى بأى نصر ، لكن ربنا هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضُرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ؛ لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً ، وهذا يدلنا على اختبار المبادىء .

إنك تجد أنّ الذى يؤمن بالمبادىء هو الذى يضحى أولاً ، يدفع ماله وقد يدفع دياره ، بأن يخرج منها ، وقد يدفع نفسه فيقتل ، كل ذلك من أجل المبدأ ، لكن الأمر يختلف مع المبادىء الباطلة ؛ فقبل أن يدخلها واحد نجده يأخذ الثمن . ومن يروجون للمبادىء الباطلة يقولون لمن يغررون به : خذا مالاً وعش واستمتع ، واشتر أحسن الثياب .

أما أصحاب مبدأ الحق فهم الفقراء الذين يدفعون الثمن ، ولهم الحق أن يدفعوا الثمن لأن المثمن غال ، لكن فى الباطل لا يعرفون مثمناً . والذى ينظر لمبدأ من المبادىء الهدامة ، يرى كيف يعيش قادتها ، بينما الرعية تحيا فى بؤس ، فيقول : أنا آخذ الثمن مقدماً،والأمر يختلف مع المؤمنين ، فهم الذين يدفعون الثمن . لينعموا بالجزاء فى الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى حين يشرع القتال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يشرعه أولا دفاعا ، كانوا يطلبون من رسول الله ، يقولون : يا رسول الله ، إئذن لنا نقاتل على قدر جهدنا ، فيقول : « اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال »[1] .

وبعد ذلك يؤمر بالقتال كى يدافع عن الخلية الإيمانية بعدما ذهبوا إلى المدينة ، ونعلم أن القتال عملية ضرورية فى الحياة . فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

(١) الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر .

وهو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

إذن فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضرورى واقعى . وحين يعاب على الإسلام أمر القتال ، نقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغى هى التى تحول دون تطبيق منهج من مناهج العدالة المعروفة ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها . ولو لم يكن العدل قادماً من السماء لما كان هناك منهج صالح يحكم الناس ، فإذا أراد الله أن يصنع العدل بمنهج أنزله هو ، فلماذا يأتى من يقف فى الطريق ويقول للرسول : أنت جئت لكى ترغم الناس أن يؤمنوا بمنهجك ؟!

ويوضح الحق مسيرة الرسول أنه جاء لكى يثبت كرامة الإنسان فهو سيد الأجناس التى تحيط به ، فالجماد مسخر ، والنبات مسخر ، والحيوان مسخر ، وليس لأى منهم حرية فى أن يقول : افعل ولا تفعل ، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان ؛ فالحق هو القائل عن أمانة الاختيار .

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فبأى شيء تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس ؟ تميز عليهم بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

ومثال ذلك : هناك مكان نريد أن نذهب إليه ، فيوضح لك إنسان : لا يوجد إلا هذا الطريق ، فهل تفكر أن تذهب عن طريق آخر ؟ طبعا لا ، إذن فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له . وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار أم نقيد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مسخراً مكرهاً ؛ ولذلك فالمكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر .

ومادمت تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب كأن يكون مجنونا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجودا لكنه لم ينضج بعد نقول أيضا : لا اختيار .

إذن فلا بد أن يكون العقل موجودا وناضجا للاختيار بين البديلات ، ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجودا فهو مجنون فلا تكليف له . والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل ، لكن أعفاه الله أن يسأله أحد عن شيء ، فيفعل ما يفعل دون سؤال ، فلا تكليف لمجنون ، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج ، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ .

إذن فالإسلام جاء ليحمى كرامة الإنسان فى حرية الاختيار ، ويعرض عليك أمر الإيمان ، فالذى حمل السيف ، لم يحمله ليجبر أحداً على الإيمان ، إنما ليرد كيد من أرادوا قهر الناس ، والجزية إنما فرضت لإعفاء غير المسلمين من مسئولية القتال ، ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس فى البلاد التى فتحها لما وجدنا أتباع أى دين فى البلاد التى دخلها الإسلام . وهذه شهادة للمسلمين .

إن الإسلام لم يجئ ليفرض دينا وإنما جاء ليحمى حرية اختيار الدين ؛ والّذين يقولون:إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم : افهموا جيدا ، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعافا وظلوا على الضعف مدة طويلة ، والبلاد التى فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير المسلمين ، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمى حرية الاختيار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ثم نأتى لنقطة أخرى وهى أن الإسلام لم يأخذ الجزية إلا لأن غير المسلم سيستمتع

بكل خيرات بلاد الإسلام ، والمسلم يدافع وأيضا يدفع الزكاة والخراج . إذن فالمسألة عدالة منهج ، وعلى ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق :

﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالقتال إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينما يقول : « فليقاتل فى سبيل الله » فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأن يقاتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائما حسب نيته ، ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيدا . إذن فالقتال مرة يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

يقول الحق : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أى يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة ، « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

إذن فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أن يُقْتل من الأعداء ، وإما إن ينتصر ، وهذه هى القضية الجدلية التى تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنين : إما أن أُقتل فأصبح شهيدًا آخذ حياة أفضل من هذه الحياة ، وإما أن أنتصر عليك ، فلماذا تتربصون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شيء ؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير .

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم ، وشهادة لهذا الدين بأنه صحيح ، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنعا بالدين ، فكل واحد يعمل

لحياته ونفسه ، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نفعية حتى فى الدين ، ولذلك يقولون : لا تكن أنانيا رخيصا بل عليك أن تكون أنانيا غاليا ، والدين هو ممارسة لأنانية عليا .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الذى ليس معه إلا جنيه وهو يحتاج إليه ثم رأى واحدا فى حاجة ماسة ، فيقول المؤمن لنفسه : لقد أكلت ، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد فلأعطه الجنيه .

بالله أهو يحب الذى أخذ الجنيه عن نفسه ؟ لا ، بل هو يحب نفسه ، لكنها أنانية عليا ؛ أنانية معلاة . وسبق أن قلنا : إن الذى يجلس ويرى امرأة جميلة فغض عينه أمره يختلف عن واحد آخر « يبحلق » ويحدّق وينظر إليها بشدة ، فأيهما يحب الجمال أكثر ؟ إن الذى غضّ بصره هو من يحب الجمال أكثر ؛ لأنه لا يريدها لحظة فقط ، بل يريدها مستديمة .

فما بالنا بالذى يبيع الدنيا ويقتل فى سبيل الله ويأخذ الآخرة التى ليس فيها قتل أو أى شيء مكدر ؟ إذن فهذه أنانية عليا ، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النفعية ، لكنها نفعية عليا وليست نفعية رخيصة أو قصيرة المدى ، فيجعلنا نبيع الرخيص بالثمن الغالى .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقاتلون فى سبيل الله وعرض عليه منظرهم وهو فى ليلة الإسراء والمعراج ، رأى صلى الله عليه وسلم جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة ؛ لأن الذى قتل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة الله ، فلا ينتهى قطفه أبدا للخير الذى بذله ، وحياته مستمرة فى حياة الملايين . « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وعرفنا أن كل مؤمن يقاتل فى سبيل الله إنما يقول لمعسكر الكفر ما جاء به الحق فى قوله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل ويكون شهيداً ، وإما أن يَغلب معسكر الكفر . وهو يتربص بالكافرين أن يُصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدى المؤمنين ، إذن فالمؤمنون رابحون على كل حال ، والكافرون خاسرون على كل حال .

و« المعرى » قبل أن يهديه الله وكان متشككاً قال :

تُحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يُعاد لنا سبك

فقالوا:إنه ينكر البعث ، فمادام قد جاء بمثل يقول فيه إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى ، قال ذلك أيام تكبر الفكر ، وهذه تأتى فى أيام الغرور ، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب فى فكره وينتهى إلى الإيمان ، لكن أكان ضامناً أن يعيش حتى يؤمن ؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك ؟ ولكنه بعد أن آمن قال : « هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور . ربنا حَقٌّ وربنا سميع وربنا بصير وقال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما   لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر   أو صحّ قولى فالخسار عليكما

أى إن صحّ قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة فى الدنيا ، فماذا أكون قد خسرت ؟ إننى لن أخسر شيئاً ، وإن صحّ قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث فأنا الذى يكسب والخسران والبوار والعذاب عليكما ، إذن فإيمانى إن لم ينفعنى فلن يضرنى ، وكلامكما حتى لو صح ـ وهو غير صحيح ولا سديد ـ فلن يضرنى .

والحق يقول : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » وسبحانه هنا يطيل أمد العطاء . انظروا دقة الأداء القرآنى،لأن الذى يتكلم هو الله ، ولنر كيفية ترتيب فعل على فعل ، فحين أقول لك : « احضر لى أكرمك » ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إن قلت لك : « إن حضرت إلىّ فسأكرمك » ، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أن تأتى بل أنت تحضر عندى وبعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فإنى أقول : « إن حضرت إلىّ فسوف أكرمك » . إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى من فور حصول الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه « السين » ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ولم يقل الحق : من يقاتل فى سبيل الله نؤتيه أجراً عظيماً ، ولم يقل : فسنؤتيه أجراً عظيما ، ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجرا عظيماً » وهذا القول سيبقى ليوم القيامة ؛ لذلك كان لابد أن تأتى « سوف » هنا ، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع .

وهكذا نرى إحكام الأداء القرآنى ، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته ، يأتى بأساليب كثيرة : فمرة يأتى بأسلوب الجمع ، ونحن نقول ، كما علمونا فى النحو : « النون للتعظيم » كما فى قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

لم يقل : أنا أنزلت . . فكل شىء يكون نتيجة فعل من أفعال الله . تأتيه « نون التعظيم » ؛ لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً لخلقه من متعة أو من نعيم ، يريد صفات كثيرة : قدرة للإبراز ، وعلما لترتيب النعمة ، وتدبيرا وحكمة ، وبسطا ، فيقول هنا : « نؤتيه » ، لأن الصفات تتكاتف لتعمل الخير ، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل . فسبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ ﴾

(سورة طه)

فساعة يتكلم سبحانه عن ذاته فهو يتكلم بالوحدانية ، ولا تقل بالإفراد تأدباً مع الله فليس له شريك أو مثيل ، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتى بالجمع فيقول : « نحن » وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، مثلما حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

لقد جاء سبحانه فى صدر الآية بـ « أنزل » وكان يناسبها أن يأتى بعدها « أخرج » ، لكنه قال : « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » فلماذا هذه « مفردة » وتلك « جمع » ؟ ؛ لأنه ساعة قال : « أنزلنا من السماء ماءً » لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل فى إنزال المطر ، لكن ساعة أن أنزل المطر ، نجد واحداً قد حرث الأرض ، وثانياً بذر ، وثالثاً روى الأرض ، وكل ذلك من أسباب خلقه ، فلم يهضم الله خلقه فقال : « أنزل من السماء ماءً » ثم بعد ذلك : أنا وخلقى بما أمددتهم ومنحتهم « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . إذن فلا بد أن ننتبه إلى دلالة الكلمة حين تأتى بالمفرد وحين تأتى بالجمع .

وقوله سبحانه : « نؤتيه أجراً عظيماً » يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة . فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته فى قوة الشاب أو قوة الرجل ، فإذا كان الذى يعطى الأجر مثيلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره ، لكن إذا كان من يعطى هو ربنا ، فسيعطى الأجر على قدره ، ولا بد أن يكون عظيماً . والأجر هو الشيء المقابل للمنفعة .

وهناك فرق بين الأجر والثمن ؛ فالثمن مقابل العين ، أما الأجر فهو مقابل المنفعة ، أنا اشتريت هذه ، فهذا يعنى أنى دفعت ثمناً ، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن أخذته لأنتفع به فقط ، وجزاء الحق لمن يقتل فى سبيل الله أهو أجر أم ثمن ؟ ، ونلتفت هنا أن الحق قد أوضح : أنا لم أثمن مَن قتل ، بل نظرت لعمله ، فأخذت أثر عمله ، وأعطيته « أجراً عظيماً » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

والآية تبدأ بالتعجيب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله كان لا بد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية ، ونحن نقول فى حياتنا العادية : وما لك لا تفعل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً وعجيباً . فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطى نتائج رائعة ، فالذى لا يفعله يصبح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » أى لإعلاء كلمة الله ، ومرة يأتى القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذى أوذى بسبب دينه . ويكون ذلك أيضا لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » أى أن القتال يكون فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين ، وفى ذلك استثارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين فى سبيل تخليصهم من العذاب ؛ لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب ، فهذا دليل على قوة الإيمان ، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهذه مسألة تحتاج إلى بحث .

وساعة يطرح ربنا مثل هذه القضية يطرحها على أساس أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل فى العقل ، فليقولوا لنا إذن : كيف يكفرون بربنا ؟

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال » وكلمة «والمستضعفين» يأتى بعدها « من الرجال » والمفروض فى الرجل القوة ، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً ، ومَنْ يأتى بعده أشد ضعفاً . « المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيرا » فقد بلغ من اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، والقرية هى « مكة » .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا ، وظلوا على دينهم ، فصاروا مستضعفين : رجالاً ونساءً وولداناً ، فالاضطهاد الذى أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق للمؤمنين : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » .

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ قالوا : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً » وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولىّ يلى أمرهم من المسلمين ، فكأنها أوحت لنا بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان .

لقد جعل الله لهم من لدنه خير ولىّ وخير ناصر وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم « سلمة بن هشام » لم يستطع الهجرة ، ومنهم « الوليد بن الوليد » و« عياش بن أبي ربيعة » ، و« أبو جندل بن سهيل بن عمرو » . وسيدنا ابن عباس - رضي الله عنه - قال : لقد كنت أنا وأمي من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان ، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم ، لذلك يحنن الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا فى سبيلهم ؛ فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان فى العذاب .

« الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً » وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

وعرفنا أن الطاغوت هو : المبالغ والمسرف فى الطغيان ، ويطلق على المفرد وعلى المثنى ، وعلى الجمع : فتقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

إذن فالطاغوت يطلق على المفرد وعلى المثنى وعلى الجمع ، وهل الطاغوت هو الشيطان ؟ . يصح . أهو الظالم الجبار الذى يطغيه التسليم له بالظلم ؟ يصحّ ، أهو الذى يفرض الشرّ على الناس فيتقوا شرّه ؟ يصحّ ، وكل تلك الألوان اسمها « الطاغوت » .

والأسلوب القرآنى يتنوع فيأتى مرة ليقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

وانظر للمقابلة هنا : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » ، هنا « آمنوا » و« كفروا » وهنا أيضا فى « سبيل الله » و« فى سبيل الطاغوت » هذه مقابل تلك . لكى نعرف العبارات التى ينثرها ربنا سبحانه وتعالى علينا أن ندرك فيها الخطفةالإعجازية ، قال فى هذه الآية : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا » مقابلات ، لأن الكافر مفهوم أنه طاغوت ، ولكن : إذا ذكرت فى الثانية مقابلا لمحذوف من الأولى ، أو حذفت من الأولى مقابلاً من الثانية ، هذا يسمونه فى الأسلوب البيانى احتباكا كيف ؟

ها هوذا قوله سبحانه وتعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » أى تقاتل فى سبيل الطاغوت ، ويقابلها الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولا بد أن تكون مؤمنة .

إذن فالكلام كله منسجم ، فقال : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة » وترك صفتها كمؤمنة وقال : « تقاتل فى سبيل الله » وسنعرف على الفور أنها مؤمنة ، وربنا يحرك عقولنا كى لا يعطينا المسائل بوضوح مطلق بل لنعمل فكرنا ، كى لا يكون هناك تكرار ، ولكى تعرف أنه إذا قال : « فى سبيل الله » يعنى مؤمناً ، وإذا قال : « فى سبيل الطاغوت » يكون كافراً .

ويتابع الحق : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . أى نصراء الشيطان الذين ينفخون فى مبادئه ، والذين ينصرون وسوسته فى نفوسهم ليوزعوها على الناس ، هؤلاء هم

أولياء الشيطان ؛ لأن الشيطان ـ كما نعرف ـ حينما حدث الحوار بينه وبين خالقه . قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

لكنه عرف حدوده ولزمها فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

(سورة ص)

أى أن من تريده أنت يارب لا أقدر أنا عليه . وهذه تدلنا على أن المعركة ليست بين إبليس وبين الله ، فتعالى الله أن يدخل معه أحد فى معركة ، بل المعركة بين إبليس وبين الخائبين من الخلق ، فعندما قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » دلّ على أنه عرف كيف يُقْسِم ويحلف ؛ لأن ربنا لو أراد الناس كلهم مؤمنين لما قدر الشيطان أن يقرب من أحد ، لكن ربنا عزيز عن خلقه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن هنا دخل الشيطان ، فالشيطان قد دخل من عزّتك على خلقك سبحانك لأنك لو كنت تريدهم كلهم مؤمنين لما استطاع الشيطان شيئاً ، بدليل قوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » أى أنا لا أقدر عليهم . ودلّ قَسَم الشيطان أنه دارس ومنتبه لمسألة دخوله على العباد فقال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فالشيطان لن يأتى على الصراط المعوجّ ؛ لأن الذى يسير على الصراط المعوج والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً ؛ فهو مريح للشيطان ، ويعينه على مهمته ، فيكون وليّه . فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنهج ، وهم نصراء الشيطان .

والحق يأمرنا : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . هؤلاء الذين بينهم وبين الشيطان ولاء ، هذا ينصر ذاك ، وذاك ينصر هذا ، ويطمئننا الحق على ذلك فيقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ؛ لأن الشيطان عندما يكيد سيكون كيده فى مقابل كيد

ربه ، فلا بد أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله ، وليس للشيطان سلطان يقهر قالب الإنسان على فعل ، ولا يستطيع أن يرغمك على أن تفعل ، وليس له حجة يقنعك بها .

والفرق بين من يكره القالب ـ قالبك ـ : أنك تفعل الفعل وأنت كاره . كأن يهددك ويتوعدك إنسان ويمسك لك مسدساً ويقول لك:اسجد لى ـ مثلاً ـ إذن فقد قهر قالبك . لكن هل يقدر أن يقهر قلبك ليقول:« أحبنى » ؟. لا يمكن . إذن فالمتجبر يستطيع أن يكره القالب لكنه لا يقدر أن يقهر القلب ، فالذى يقهر القلب هو الحجة والبرهان ، بذلك يقتنع أن يفعل الفعل وليس مرغماً عليه . إذن فالأول يكون قوة ، والثانى يكون حجة .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اعرفوا أن هذا الشيطان ضعيف جداً ، فهو لا يملك قوة أن يرغمك فإذا أغواك تستطيع أن تقول له : لن أفعل . . ولا يستطيع أن يأتى لقلبك ويقول لك : لا بد أن تفعل ويحملك على الفعل قهرا عنك . فليس عنده حجة يقنعك بها لتفعل ، فهو ضعيف ، فلماذا تطيعونه إذن ؟. إنكم تطيعونه من غفلتكم وحبكم للشهوة ، والشيطان لا يقهر قلبكم ، ولا يقهر قالبكم . بل يكتفى أن يشير لكم !!، ولذلك سيقول الشيطان فى حجته يوم القيامة على الخلق :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى لم يكن لى عليكم سلطان : لا سلطان قدرة أرغمكم على فعلكم بالقالب ، ولا سلطان حجة أرغمكم على أن تفعلوا بالقلب ، أى أنتم المخطئون وليس لى شأن ، إذن فكيد الشيطان ضعيف . و« الكيد » ـ كما نعرف ـ هو : محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك من يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك من يريد أن يفسدها بحيث إذا أمسكت به يقول لك : لم أفعل شيئاً ؛ لأنه يفعل الخطأ فى الخفاء . ويفسد الحال بالاحتيال . والكيد لا يقبل عليه إلا الضعيف .

إن القوى هو من يواجه من يكيد له ، فالذى يدسّ السّم لإنسان آخر فى القهوة

ـ مثلاً ـ هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ، لأنه لا يقدر أن يواجه ، أما القوى فهو يتأبى على فعل ذلك ، وحتى الذى يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له : أنت خائف ، أنت أثبت بجرأتك على قتله أنك لا تطيق حياته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضى أن تقول : أبقيه وأنا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إذن فكيد الشيطان جاء ضعيفاً لأنه لا يملك قوة يقهر بها قالباً ، ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وأنت تأتيه : ولا يحتال إلا الضعيف . وكلما كان ضعيفاً كان كيده أكثر ، ولذلك كانوا يقولون مثلاً : المرأة أقوى من الرجل لأن ربنا يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ونقول لهم : مادام كيدهن عظيما ؛ إذن فضعفهن أعظم ، وإلا فلماذا تكيد ؟. ولذلك يبرز الشاعر العربى هذا المعنى فيقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة … قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ساعة يمسك خصمة مرة . وتمكنه الظروف منه ؛ يقول : لن أتركه لأننى لو تركته فسيفعل بى كذا وكذا . لكن القوى حينما يمسك بخصمه ، يقول : اتركه وإن فعل شيئاً آخر أمسكه وأضربه على رأسه ، إذن فإن كان الكيد عظيماً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

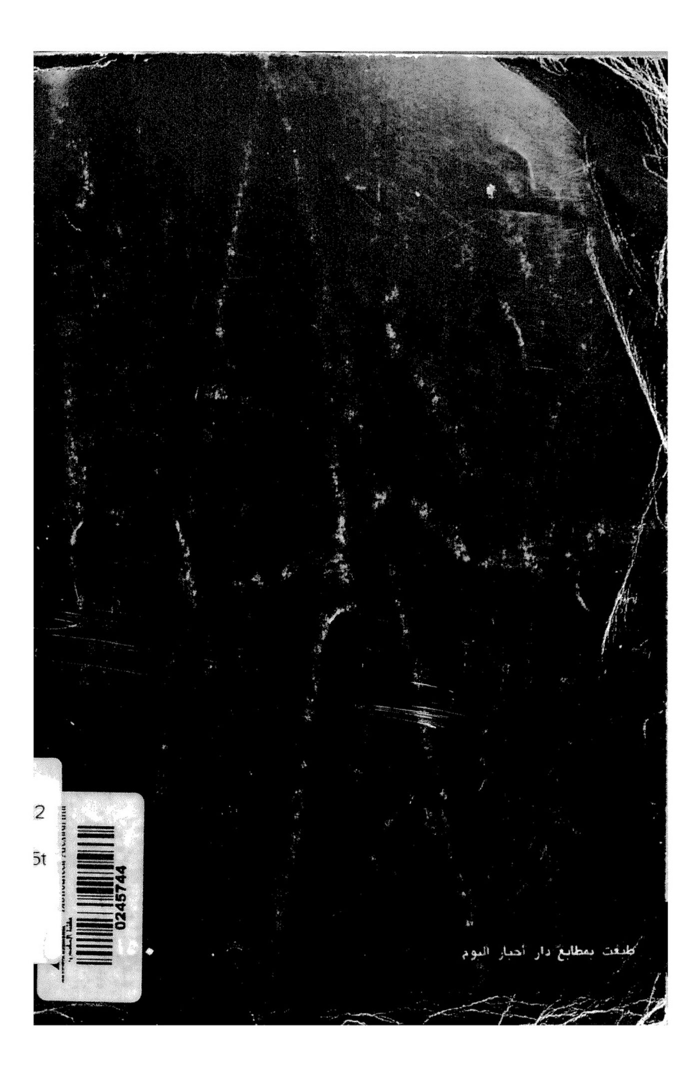
نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعني : إن كانت مرئية في زمنها ، فلك أن تتأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مرئية فمعناها : ألم تعلم ، ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين . وحين يقول الحق : « كفّوا أيديكم » لا بد أن تكون بوادر مدّ الأيدي موجودة ، فلن يقال لواحد لم يمد يده : كف يدك . والكلام هنا في القتال ، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جاء في المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال » إذن فقد قيل لهم : « كفوا أيديكم » لأن بوادر مدّ الأيدى للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا : دعنا يا رسول الله نقاتل ، وإما فعلاً بأن تهيأوا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كُتِبَ عليهم القتال » دل هذا القول على وجود زمنين بصدد هذه الآية : زمن قيل لهم : كفّوا أيديكم ، وزمن كُتِبَ عليهم القتال ، فنفهم من هذه أنه كانت هناك بوادر لمدّ اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا:دعنا نقاتل هم : ابن عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكا للرسول لكان قد أمرهم بمجرد أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا نبى الله ، كنا فى عزة ، ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة قال : « إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »[1] .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه النسائى والحاكم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .



طبعت بمطابع دار أخبار اليوم